الأسبوع 13 مارس 1924

السبت 29

غراهام سويفت

أحد الأمومة الأحد 30

أحد الأمومة

(رومانسية)

ترجمة أحمد العلي

غراهام سويفت

أحد الأمومة

(رومانسية)

ترجمة أحمد العلي

أحد الأمومة

هذا الكتاب بدعم من:

مبادرة 1001 عنوان

أحد الأمومة

تأليف: غراهام سويفت
ترجمة: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-10-101-7

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2018

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2018
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Mothering Sunday
Copyright © 2016 by Graham Swift.

كلمات
KALIMAT GROUP • مجموعة كلمات

خريطة شخصيات الرواية

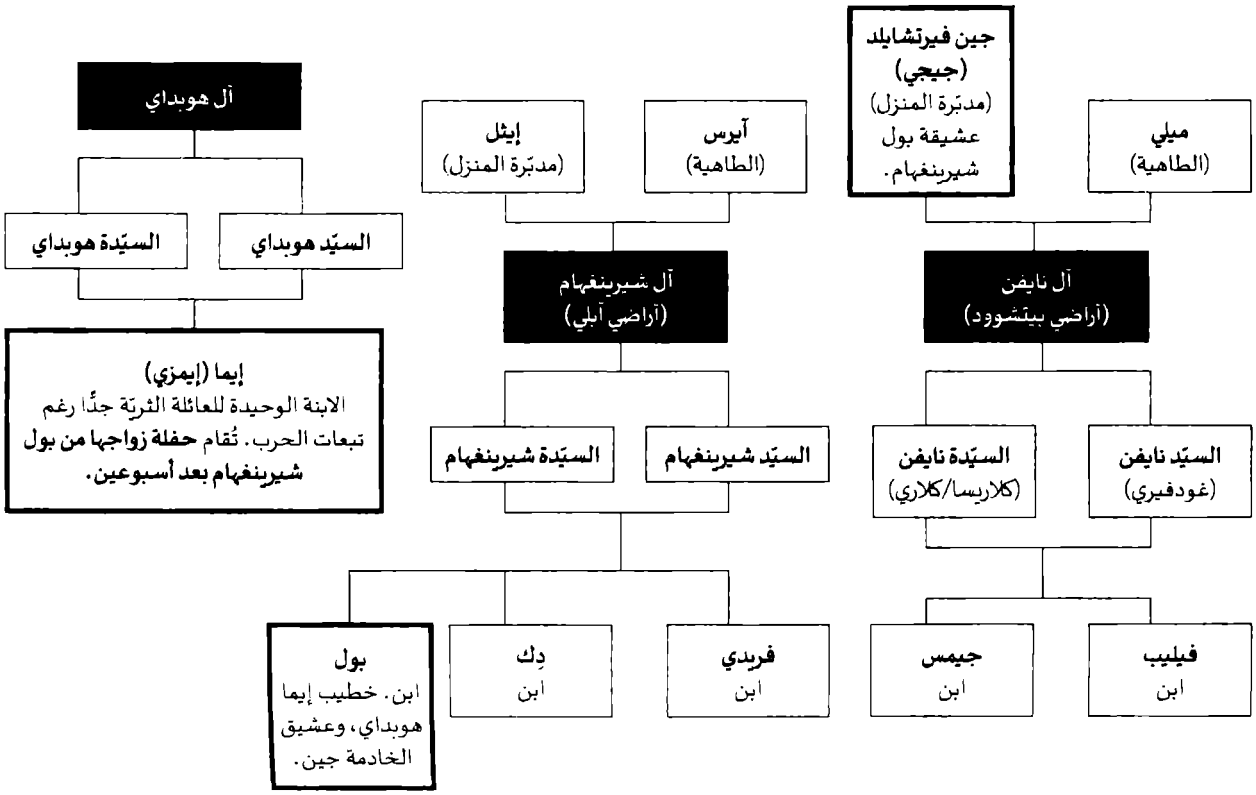

إلى كاندِس

«وإنّكِ لذاهبةٌ إلى الحفْل الرّاقص!»

قصّة سندريلا

كان يا ما كان، قبل مقتل الفتيان، حين كانت العربة أقلّ رواجًا من الحصان، وقبل تسريح الخَدَم الذّكور من الدُّور، في أراضي آبلي وفي بيتشوود العالية، مكتفين بخادمةٍ وطاهية، كانت هناك عائلة تُدعى آل شيرينغهام. لم تكن تملك مجرّد جيادٍ أربعة، بل إن بينها 'جوادًا أصيلًا' جواد سباق، فحْلًا، اسمه فاندانغو، يرعى في اسطبلٍ جوار نيوبيري. لكنّه لم يربح قط قرشًا. والسّبب هو تدليل العائلة له، فهم يأملون منه تحقيق الشُّهرة والنّصر في ميادين السّباق جنوبيّ إنجلترا. وقد اقتضى الاتفاق أن ماما وبابا (أو 'العصابة' وفق معجمه الكلاميّ الغريب) لهما رأسُ الحصان ومُجمل جسده، بينما الفِتيان –هو ودِك وفريدي– لكلّ واحدٍ منهم طرفٌ من الأطراف.

«ماذا عن السّاق الرابعة؟»

«أوه، السّاق الرابعة، هذا هو السؤال الأزليّ.»

لزمنٍ طويل، لم يُعرف من الحصان سوى اسمه، ولم يُرَ قط. غير أنّه اسمٌ غُذّيَ طويلًا فغدى ثمينًا ذا جاه، ويدُلّ على حُسن الرعاية. بِيعَ عام 1915، بينما عمره خمس عشرة سنة أيضًا. «قبل دخولك حياتي يا جيجي (جين)». باستثناء ذاك الصّباح الباكر من حزيران، في زمنٍ

بعيد، ذهبوا جميعًا ليُعاينوا عن قُربٍ جُموحَه وغرابته، فقط لرؤية فاندانغو، حصانهم، يعدو طَليقًا نافرًا بين المروج؛ فقط ليقفوا عند السياج ويحدّقوا فيه، ترافقه خيولٌ أخرى، ينطلق عاصفًا نحوهم ليجتازهم خطْفًا. هو وماما وبابا ودِك وفريدي، وشخصٌ آخر ربما، من يدري؟ شَريكٌ شبحيٌّ هو المالك الحقيقي للسّاق الرابعة.

وكانت يده على ساقها.

إنها المرّة الأولى التي تشهد فيها عينيه تغرورقان، فيُخيّل إليها أنها لربما كانت هناك معهم (ولسوف يرافقها هذا الإحساس حتى تبلُغ التّسعين من عمرها) وأنها ربما تستطيع بمُعجزة خارقة أن تذهب معهم مرّة أخرى، أن ترافقه هو، أن تقف بمحاذاة السّياج لترى فاندانغو يندفع مسرعًا على مسافةٍ منهم قصيرة، قاذفًا بحوافره التُّربة النديّة. لم ترَ أمرًا مشابهًا من قبل، لكنها تستطيع أن تتوهّمه إلى حدّ أن تُبصره بوضوح. شريكهم الشبحيّ. سترى الشّمس حينئذ تعلو، قُرصًا أحمر يطلّ على الحقول الرماديّة، بينما الطّقس يُرجف الهواء برْدًا، وهو – ربما– يُقاسمها الشّراب في قارورة فضيّة، ويده تتحسّسُ –في خلسةٍ من أهله– ردفها.

لكنها تراه الآن ينهض عاريًا إلّا من خاتم فضّةٍ منقوش، عابرًا الغرفة المضاءة بالشّمس. لن تقول عن رجلٍ آخر، بقيّة حياتها، مهما بلغَ جهده، أنّه فحل. إلّا هو. كان في الثالثة والعشرين من العمر، وهي في الثانية والعشرين. وكان أيضًا –لو صحّ التعبير– أصيلًا، لكنها لم تُدرك

هذا التعبير الأخير وقتها، لم تعرف صفةً لما جرّبته سوى الفحولة، لم تتعلّم بعد مليون مفردة. الأصالة: هي ما تليقُ به، حيث أن 'النّسل' و 'المنشأ' هو كلّ ما له اعتبار لمن هُم في وضْعه وفي طبقته، ولا يهُم لأيّ غاية يُعتنى بهذا الأمر كلّه ويُحافَظ عليه.

إنّه الرابع والعشرون من آذار عام 1924. لم يكن حزيران، بل كان يومًا يشبه حزيران. ولابدّ أيضًا أنّ الوقت هو ما بعد الظّهيرة بقليل. النّافذةُ فُتحت، وراح هو يسيرُ، دون رداء، في غُرفةٍ مِلْؤها الشّمس، مرتاحًا غافلًا، مثل أيّ حيوان على الأرض، في مقدوره فعلُ ما شاء في غرفته تلك، بصراحة ووضوح. لكنها هي التي لم تكن فيها من قبل، ولن تدخلها مرّة أخرى أبدًا.

وكانت هي أيضًا عارية.

إنّه الثلاثون من آذار عام 1924. كان يا ما كان. وظلالُ العريشة التي تسلّقت النافذة تنام على جسده مثل زخارف المشجّرات. أمّا وقد قامَ وجمعَ في يده علبة السجائر والقدّاحة، ومنفضة فضّية صغيرة من فوق المنضدة، التفت نحوها. وهناك، خلال أجَمة من الشّعر الفاحم الكثيف، الذي تغسله الشّمس بضوئها، كان قضيبه، وكانت خُصيتاه، تتخبّط بعضها ببعض، وما تزال لزجة. في مقدورها إن أحبّت أن تنظر إلى ذاك كلّه، دون ممانعة.

لكنّه وقتها سيصطاد نظرتها وينظر إليها. كانت تستلقي منبسطة الأطراف كيفما اتّفق، عاريةً إلّا من قُرطَيها، وما أرخصهما، لكنّها لم تملك غيرهما. لم ترفع الملاءة إليها. بل وإنها كانت تجمع ذراعيها خلف رأسها كي تُحسن التمعّن فيه. يستطيع هو في المقابل التمعّن في كلّ ما فيها. **أَطْعِم عينيك**. تعبيرٌ وردَ إلى ذهنها، ما استدعى تعابيرَ أخرى

كثيرة. أيُّها الفتى، **أَطْعِم عينيك**.

في الخارج، كانت مُقاطعة باركشير منبسطةً أيضًا، ترتدي أساورَ من خُضرةٍ نَضِرة، وهي تنعُمُ في آذار بشمس يومٍ من حزيران.

ما زال وقتَها يركض وراء الخيول. بمعنى أنه ما كفّ يرمي أمواله جزافًا في سبيلها. تلك هي طريقته في التوفير، أن يبعثر أمواله في عالمها. لقُرابة ثماني سنوات، عاش بأموالٍ من المُفترض أن تقسّم على ثلاثة أشخاص، نظريًّا. كان يسمّيها 'الغنائم،' وأراد أن يُثبت أنه يستطيع المضيّ في حياته دونها. وما الذي كان الاثنان الآخران ليفعلاه بها خلال السّبع سنوات الماضية (كما يُحبّ تذكيرها أحيانًا،) بالتّأكيد لا شيء، سوى التكتّم عليها، والتحسّب للمخاطر، والتحايل، ومشاركة الرّغبة في إظهار حُسن التصرّف بها أمام الآخرين.

لكنّهما لم يقوما بشيء من ذاك القَبيل قط. ولم تكن هي في هذا السّرير من قبل قط (لقد كان سريرًا لشخصٍ واحد لكنّه واسع،) ولا في هذه الغرفة قط، ولا هذا المنزل. ولمّا كان وجودها هنا لم يكلّف شيئًا، فهذه أعظم الهدايا والهِبات.

وإن لم يكلّف شيئًا (ربما كانت دومًا تذكّره بهذا) فماذا عن تلك الأيام الأُوَل، حين اعتاد استدراجها بسِتّة قروش؟ أو أنها كانت ثلاثة؟ في مُستهلّ تعارفهما، قبل أن يتحوّل ما تكرّر حدوثه دون مقابل إلى علاقة جديّة (هل هذه هي الكلمة الصائبة؟) لكنها لا تجرؤ أبدًا على تذكيره بذلك. ليس الآن على أيّ حال. ولا تجرؤ على قذف هذه الكلمة في وجهه 'جديّ'.

جلس على السرير جوارها. أجرى كفًّا على بطنها كأنّه يرفع عنه غبارًا خفيًّا، ثم وضع عليه القدّاحة والمنفضة، محتفظًا بعلبة السجائر.

أخرج منها اثنتين، وألقم إحداهما شفتيها المُدودتين المعترضتين. لم تُزِح ذراعيها عن مكانهما خلف رأسها. أشعل سيجارتها ثم سيجارته، ثم تمدّد إلى جانبها بعد أن نقل القدّاحة والعلبة إلى المنضدة، تاركًا المنفضة في المساحة الرّخصة بين سرّتها وما أمكنه بسعادةٍ التلفّظ باسمه في تلك الأيام، دون استعراضيّة فجّة: فرجها.

قضيب، خصيتان، فرج. كانت هناك في ذاك الزّمن أسماءٌ بسيطة وصريحة.

إنّه الثلاثون من آذار عام 1924. كان يوم أحد، وهو ما اعتاد الناس على تسميته: أحد الأمومة.

«حسنٌ، هذا يوم جميل تقضين فيه حاجتك» قال لها السيّد نايفن بينما تجدّد له القهوة والخبز المحمّص.

«أجل، سيّدي» أجابته، وراحت تفكّر إلامَ يرمي بقوله 'حاجتك'.

«إنّه يوم رائع حقًّا،» وكأنّه قد أهداها إيّاه من واسع كرمه. ثم التفت إلى السيّدة نايفن قائلًا: «تدرين، لو أخبرَنا أحد إنّنا سنتمتّع بهذا الطقس اليوم، لأعدَدْنا سِلال الطعام كي نتنزّه جميعًا جهة النهر.»

قال ذلك بلهفةٍ وحماسة دفعتاه لوضع صحن القهوة جانبًا، ما دفعها للظنّ وهلةً أنّ هناك تبديلًا في الخطّة الأساسيّة، وبالتالي فإنّه من المطلوب منها ومن ميلي إعداد سلّة النّزهة. مهما كانت السلّة التي لربما ستُعدّانها، ومهما كان ما ستحضّرانه لملئها في ظلّ هذا القرار المفاجئ المستهتر، فاليوم هو يومهما.

قالت السيّدة نايفن بعدها: «إنّه آذار يا عزيزي غودفري،» ثمّ حدجت النافذة بنظرة ملؤها الشّك.

حسنٌ، لقد أخطأت التّقدير. لم يزدَدْ طقس اليوم سوى روعة وصفاء. وعلى أيّ حال، إنّ لآلِ نايفن خطّتهم اليوم، والتي لن يستطيع الطقس سوى الابتسام بينما يُتابع مجرياتها. إن عليهم السّياقة إلى هينلي كي يُقابلوا آل هوبداي وآل شيرينغهام. يجتمعون آخذين في الاعتبار ورطتهم المشتركة (والتي تحدُث مرّة واحدة في السّنة ولجُزءٍ من اليوم وحسب.) لهذا يلتقون لتناول طعام الغداء في هينلي، متأفّفين من العناء المؤقّت الذي يسبّبه غياب الخدم.

تلك كانت فكرة آل هوبداي، أو لنقُل دعوَتهم؛ فبالنظر إلى أن بول شيرينغهام سيتزوّج إيما هوبداي خلال أسبوعين، فقد قام آل هوبداي بطرح الفكرة على آل شيرينغهام؛ نُزهةٌ للغداء: فُرصةٌ لرفع الأنخاب وتجاذب أطراف الكلام عن الحدث القادم، كما أنّه حَلٌّ مقبول للمُعضلة العمليّة التي يعيشونها في أحد الأمومة. ولأن آل نايفن أصدقاء مقرّبون من آل شيرينغهام وجيرانهم، وسيكونون ضيوف الشّرف في حفلة الزواج (ولذلك سيُشاركون في تذليل بعض الصعوبات،) فإن آل نايفن (كما قال لها السيّد نايفن عندما أخبرها عن الترتيبات التي لا مناص من إنجازها) قد 'تورّطوا'.

وهذا ما أكّد لها أمرًا لطالما تيقّنته. مهما كانت هويّة التي سيتزوّجها بول شيرينغهام، فإنّه في الحقيقة يتزوّج أموالها. رُبما هو مضطرٌّ إلى ذلك، نظرًا إلى الطريقة المستهترة التي عاش بها خلال السّنوات الماضية. سيتحمل آل هوبداي تكاليف حفلة زواجٍ كامل، وهل احتاجوا أيضًا إلى الاحتفال اليوم بقدوم احتفال؟! ليس إلّا أن تملك ما يكفي ويزيد. قد

لا يتكبّد آل نايفن اليوم شيئًا سوى قنّينة شامبين؛ فعندما أتى السيّد نايفن على ذِكر سلّة النّزهة، ربما كان مشغول الذّهن بمدى سخاء آل هوبداي، وإلى أيّ حدّ يمكن الاتّكال على ثروتهم، أو كم سيتكلّف هو اليوم من جيبه الخاصّ.

غير أن امتلاك آل هوبداي ما يكفي ويزيد أمرٌ أسعدها. لا شأن لها بذلك إطلاقًا، لكنّه أسعدها. أسعدها أن إيما هوبداي عبارة عن أوراق نقديّة من خمسة جنيهات، وأن هذه الزّيجة هي سبيلٌ مدروس لتحصيل 'الغنائم'. أسعدها ذلك، أو بمعنى أدقّ: واساها. لكنها تلك الأمور الأخرى التي قد تتطلّب مشاركتها (أو كما قال السيّد نايفن عن ' الورطة') هي ما تسوؤها.

وهل سينضمّ السيّد بول والسيّدة هوبداي إلى حفل الغداء اليوم؟ لم تستطع أن تستفسر عن ذلك مباشرة، مهما بلغت أهميّة الجواب بالنسبة لها حدّ الموت، فالسيّد نايفن لم يتبرّع بالإفصاح عن هذه المعلومة.

«هل لكِ أن تعيدي كلّ ما قلتُه بشأن الترتيبات على مسامع ميلي؟ لا شيء منها بالطبع سيؤثّر على ما أعددْتُماه **لنفسيكما** من خطط مسبقة.»

بالطّبع، قليلة هي تلك المناسبات التي تُتيح له قول مثل ذلك، فلا يوفّرها.

«بالطّبع، سيّدي.»

«سنقيم كرنفالًا صاخبًا في هينلي، يا جين! إنّه لقاء الأعراق! لنأمل أن يواتينا الطّقس على قدْر المناسبة.»

لم تكن متيقّنة من معنى 'كرنفال'. لكنها شعرت أنها قرأت الكلمة في

كتابٍ ما. لكن 'فال' أو 'فأل' تقترح معنىً ما: سعادةً قادمة.
«آمُلُ ذلك أيضًا، سيّدي.»

والآن، يتجلّى لهم أن الطقس يواتيهم، والسيّد نايفن، مهما كانت حساباته في السّابق سلبيّة، بدأ يشعر بالسعادة، حتى أنّه سيقود العربة بنفسه، معلنًا أنهم سينطلقون باكرًا لاستغلال هذا الصّباح الباهر في الوقوف 'هنا وهناك'. لن ينادي على آلْف، كما يبدو، بينما يقف عند المرآب، والذي مُقابل مبلغٍ زهيد قد يكون سائقًا مقبولًا. لكن، في الأحوال كلّها، انتهى رأيُها الذي استخلصته خلال السّنوات الأخيرة إلى أنّ السيّد نايفن يحبّ السياقة. وحتى أنّه يفضّل مُتعة السّياقة نفسها على وقار وجلال أن يُساق به. تغمره السّياقة بمتعةٍ صبيانيّة. وكما اعتاد أن يقول، بمختلف النّغمات الصوتيّة، صياحًا ونواحًا: إن الزّمن يتغيّر.
كان يا ما كان، كان لآل نايفن أن يلتقوا آل شيرينغهام خلال صلاة الأحد على أيّ حال.
'لقاء الأعراق'. يقترح هذا التعبير أن اللقاء لابدّ وأن يكون مفعمًا وفي الهواء الطلق. لكنها تعرف أنّه سينعقد في فندق جورج، الواقع في هينلي. ليس له أن يتحوّل إلى نُزهة. ولربما اقتضى الأمر قضاء اليوم كاملًا هناك، فالشّهر هو آذار، أيْ رياحٌ قويّة وربما ثلج. لكنّه كان صباحًا آخر وكأنه أتى من الصَّيْف. وغادرت السيّدة نايفن طاولة الطعام إلى الطابق العلويّ لتستعدّ.

لم تستطع أن تستفسر، حتى في هذه اللحظات المناسبة بينما تختلي بالسيّد نايفن: 'هل ستنضمّ إلى حفل الغداء اليوم السيّدة هوبداي والسيّد...؟' حتى لو بدا السؤال نابعًا من مجرّد فضول خادمة حمقاء. ألم يكن الزواج هو حديثهم الوحيد هذه الأيّام؟ ولم تستطع إذّاكَ أن تُكمل سؤالها: 'لو أنّهما لن ينضمّا إليكم، فما الذي يفكّران في القيام به معًا؟'

لم تفكّر أنها لو كانت في مقام الخطيبة، لو أنها تشكّل النِّصفَ في حالة اقتران، لو أنها نصف بول شيرينغهام على الأقل، هل ودّت قبل أسبوعين من حفلة زواجها أن تنضمّ إلى كرنفالٍ في هينلي كي يحتفي بها مُمَثّلو الجيل القديم؟ (أو كما قد يسمّيهم هو –تستطيع رؤيته يتحدث بينما السيجارة معلّقة في فمه، بجسدٍ جافلٍ وعينين قارَبَ بين أجفانهما– 'ثلاث عصابات لعينة في وقتٍ واحد!').

على أيّ حال، إن عدم حصولها على معلومات أخرى بشأن ما يشغلها قد تركَ مشكلتها قائمة، مشكلة غريبة تخصّها وحدها، إذ ما الذي ستفعله اليوم؟ السيّد نايفن على الأقل عرف كيف سيمضي وقته هذا النهار. اليوم كان مؤلمًا في غرابته. ولم يساعد الطّقس الخلّاب في تخفيف ذلك أبدًا. بل بدا أنّه –وقد بقي أسبوعان على حفلة الزواج– يعمّق ظِلالًا ما.

نوَتْ إخبار السيّد نايفن، في لحظةٍ مواتية، أنّه إذا لم يمانع –والسيّدة نايفن– فإنها لا ترغب في الذهاب إلى أيّ مكان. تريد ببساطة المكوث هنا في بيتشوود لتقرأ كتابًا إذا سمحا –'لأقرأ كتابي'– هكذا ستقولها، رغم أن الكتاب يعود إلى السيّد نايفن. ستجلس معه في مكان ما من حديقة المنزل المشمسة.

عرفت أن السيّد نايفن لا يستطيع سوى الموافقة على طلبٍ مُسالمٍ كهذا. ولربما استحسن الصّورة إذا تخيّلها. وبالطّبع يعني ذلك أنها ستكون مستعدّة لاستئناف الخدمة فورًا متى عادوا. ستجد ما تأكله في المطبخ. ربما أعدّت لها ميلي، قبل مغادرتها، شَطيرة. تستطيع أيضًا أن تُحضّر لنفسها ما كان يُمكن أن تملأ به سلّة النزهة لغيرها.

ولربما جرى الأمر على ذلك المنوال. المقعد الطويل مُعدٌّ في زاوية الخلوة هناك، عند رُخامة المزْوَلة الشمسيّة في الحديقة. والنّحل الطنّان حبسه الطّقس في خلاياه. بينما شجرة الماغنوليا مُثقلة بالزّهر. كتابُها في حضنها. وتعرف أيّ كتابٍ سيكون.

وإذًا، ستطرح الفكرة على السيّد نايفن.

لكن رنّ الهاتف. ولأن الإجابة عليه هي إحدى واجباتها الجمّة، فقد خفَّت إليه بقلبٍ مضطرم ووَجيبٍ يتسارع. وهذا وصفٌ تقرأه في الكتب عادةً، غير أنه في بعض الأحيان حقيقيّ في رسم أحوال الإنسان. كان حقيقيًّا وقتها بالنسبة لها، راح قلبها يضطرم، مثل فؤاد بطَلةٍ تنجو بنفسها في حكاية ما. مثل القُبّرات التي ستسمع سقْسقتها بعد قليل تتردّد عاليًا في قُبّة السماء الزرقاء، بينما تبدّل قدميها على الدرّاجة في طريقها إلى آبلي.

كانت قبلها قد أحسنت تدبير الأمر. إذ رفعت صوتها بينما تُجيب سمّاعة الهاتف، لتقول بطبقة صوتٍ تصدُرُ عادةً عن خادمة تُجيب على الهاتف، لكنّها في حالتها تحمل شيئًا من المُلوكيّة: «أجل، سيّدتي.»

أصداء أجراس الكنيسة تتردّد خلف تغاريد الطيور. وهواءٌ دافئٌ يندفع من النافذة المفتوحة. لم يسحب السّتائر، لم يُراعِ وجودها على الإطلاق. يراعيها؟ لكن ذلك غير ضروري. فالنافذة تطلّ على أشجارٍ وأعشاب وخلاءٍ من الحصى. أشعّة الشّمس وحدها من يهتف لمرآهما، تصفّق لعُريهما، تفُضُّ سرّ ما كانا يفعلانه، رغم سريّته المُطلقة.

ولم يكونا قط خلال كلّ سنواتهما –بماذا ندعوها؟ السّنوات الحميمة؟ سنوات حريّتهما معًا؟– عاريين منكشفين لبعضهما كاليوم.

أَطْعِم عينيك. يا لجُرأة التّعبير، كأنّ الجمالَ ممنوعٌ فتتلقّاه مُهرّبًا إليك. أظافرها مُنهكة، وتعلو براجمها حُمْرة، وهي أمورٌ مشتركة بين من يعتاشون على الخدمة. ولابدّ أن من شعرها ما تساقط في كلّ مكان، بينما غرّتها ملتصقة بجبهتها من العَرَق. كانت تشعر بشيء من استبداده الوقِح غير المفسَّر، رغم أنّه هو الآن الخادم لا هي، فقد جلب إليها سيجارتها.

لم يكن شيء من هذا قد حدث قبل ساعتين مضت، حين أجابته على الهاتف بقولها «سيّدتي»! فصوته هو ما انبثق من السّماعة فجأة، ما أصاب الخادمة الصغيرة بدوار لحظيّ، اضطرّت معه إلى التماسك والتشبّث بذهنها حاضرًا، فقد كان الباب إلى غرفة الإفطار مشرعًا. وما زال السيّد نايفن مشغولًا بالخبز المحمّص والمربّى. جاءتها من الهاتف أوامرٌ سريعة، وجيزة، تتوقّع الامتثال الفوريّ، بينما كانت تجيب «أجل سيّدتي... لا سيّدتي... لا بأس سيّدتي.»

لقد اضطرم قلبها. **أَطْعِم عينيك.** القصّة تبدأ من هنا.

وبعد أقلّ من ساعة، بعد ترجّلها عن درّاجتها، وقد لاقاها فاتحًا لها باب المنزل الأماميّ –الباب الأماميّ، لا أيّ مدخل موارب، وكأنها

زائرةٌ حقيقية، وكأنّه هو رئيس الخدَم– راحا يضحكان على قولها له 'سيّدتي'. وضحكا مجدّدًا عندما خاطبته مرّة أخرى باللقب نفسه، بينما هو يستعجلها الدخول. ثم قال لها «أنتِ ذكيّة يا جيجي، هل تدركين ذلك؟ أنت ذكيّة!» وكانت هذه طريقته في المديح، كأنّه يبوح بأمرٍ ما كان لها أن تتخيّله أبدًا.

لكن، نعم، إنّها ذكيّة. ذكيّة بما يكفي لتعرف أنّها تفوقه ذكاءً. اكتشفت ذلك منذ أوّل لقاء بينهما، فلطالما تحايلت عليه. وكان ذلك ما أراده هو، تعرف ذلك، أن يرى أحدًا يغلبه حتى لو بأغرب الطّرق. رغم أن ذلك لا يُمكن أبدًا التّصريح به، ولا حتى التلميح إليه. لن تمحو أبدًا، حتى وهي تبلغ التسعين من عمرها، ميلها الداخليّ نحوه. كانت تشعر بحضوره الأميريّ ونفوذه عليها. لقد حكمَها تمامًا، ألم يفعل؟ لقد حكمها إلى الآن قُرابة الثمانين عامًا. كلّ الطّرق تؤدي إليه. كلّ طرقها مفتوحة له. أوه، أجل، حضوره الأميريّ. ولقد أعانته على تحقيق ذلك.

لكنّه دعاها بالذكيّة بينما يقفان في الرّدهة. أفصح عن ذلك فيما يشبه الاعتراف، وبتواضع جمّ، كأنه هو الأحمق، هو الحالة الميؤوس منها. في الخارج أشرطةٌ من أشجار النرجس أحاطت بِخَلاء الحصى. وفي الداخل، عبر البهو الواسع، واقفةً في مزهريّات كبيرة، كانت الزهور البيضاء المفتولة شِبه نيّرة. ثم أوصد الباب خلفها، فغدت معه وحدها، داخل بيت آبلي، في الحادية عشرة صباحًا من يوم أحد. وهو أمرٌ لم تجرّبه من قبل.

«من كان على الهاتف يا جين؟» صاح يسألها السيّد نايفن. لربما ظنّ بعد أن سمعها تقول 'سيّدتي' أنّ السيّدة شيرينغهام هي من تهاتفهم، أو ربما السيّدة هوبداي، لتُعلمهم عن تغييرٍ ما في الخطّة.

«رقم خاطئ، سيّدي.»

«حقًّا! وفي يوم أحد!» قال ذلك دون أن يقصد به شيئًا.

ثمّ، ناظرًا إلى الساعة، طاويًا منديل الطعام، تنحنح بطريقة بالغَ في رسميّتها.

«حسنٌ يا جين. أما وقد انتهيتِ من أمر الإفطار وتحضيره، يمكنك الآن المغادرة. وأيضًا ميلي. لكن قبل ذلك...»

وبينما هو يتكلّم، كان قد أخرج بطريقة غريبة نصفَ كراون[1]، هذا المال الذي كان ينتظر اللحظة المواتية، والذي تستحق أكثر منه لقاء دقّتها وخفّتها في العمل.

«شكرًا سيّدي، هذا لُطفٌ منك.»

«حسنٌ، إنّه يوم رائع تقضين فيه حاجتك.» كرّر ذلك مرّة أخرى. وراحت تفكّر مجددًا، وقد أربكها الأمر الآن، ما الذي قد يعني بقوله 'حاجتك'.

لكنه كان ينظر إليها نظرةً تنُمّ عن فضول، لا عن رِيبة واستجواب. ثمّ نهض عن الطاولة، بطريقة أكثر رسميّة.

كان شأنًا غريبًا، أحد الأمومة هذا الذي يواجهون تبعاته؛ إنّه تقليدٌ بدأ فعلًا بالتلاشي، غير أن آل نايفن –وآل شيرينغهام– ما زالوا متشبثين به، كأنّ العالم كلّه ما زال متبشثًا به، أو على الأقل العالم في مقاطعة باركشير الحالمة، ما برح قابضًا عليه، لأجل الأسباب الحزينة نفسها:

(1) ما مجموعه قرشان وستّة بنسات. (المترجم)

أسباب تمنّي عودة الماضي الجميل. وهي الأسباب نفسها التي تدفع آل نايفن وآل شيرينغهام إلى التقارُب أكثر من ذي قبل، أكثر بكثير، كأنّهما بقايا عائلة تنقرض.

وهو شأنٌ غريب بالنسبة لها أيضًا، لكن لأسباب مختلفة أوحى بها السيّد نايفن بتقديمه نصف الكراون وإكثاره من التنحنح والفِعال الرسميّة.

«ستأخذ ميلي الدرّاجة الأولى وتودعها المحطّة إلى حين عودتها. أمّا أنتِ يا جين فـ...؟»

اختفت الخيول، وحلّت مكانها الدرّاجات. والدرّاجتان اللتان كانتا محلّ التساؤل –نظريًّا– متطابقتان، سوى أن درّاجة ميلي تحمل سلّةً أكبر بقليل. لكن، حرصًا على الدقّة، أُطلق عليهما 'الأولى' و'الثانية،' وقد حصلت ميلي على الأولى بسبب أقدميّتها.

إنها هي من ستحصل على الثانية. وقد تكون في آبلي في غضون خمس عشرة دقيقة. لكن تبقّى هناك مسألة الاستئذان الرسميّ للخروج إلى آبلي أو إلى غيرها.

«إذا سمحت لي، سيّدي، سأغادر بالدرّاجة الثانية.»

«هذا ما ظننته طوال الوقت يا جين.»

لو كانت على سجيّتها، لقالت 'درّاجتي'. لكن السيّد نايفن شديد الحرص بشأن مسألة 'الأولى' و'الثانية،' فاعتادت على مجاراته. لقد عرفت من ميلي أن 'الفَتَيان' –فيليب وجيمس– امتلكا درّاجتين في وقتٍ مضى (إلى جانب الخيول) ودرجَ الأمر على تسميتها بالأولى والثانية. رحل الفَتيان إلى غير رجعة، ورحلت الدرّاجتان. لكن لسببٍ ما، انتقل تقليدُ التّسمية إلى درّاجتَي الخادمتين، دون اعتبارٍ إلى أن درّاجتيهما

كانتا نسخةً مخصّصة للسيّدات[2]. رغم أنها وميلي ليستا كُفأين لكُنية 'سيّدة' في الأحوال كلّها عدا في هذه المسألة الجادّة، فقد باتا سيّدتين إذ تحملان شبحين غامضين من فيليب وجيمس.

لم تقابل قط فيليب وجيمس، لكنّ ميلي عرفتهما ذات يوم جيّدًا، وبالطبع طهت لهما الطعام. ولقد عرفت ميلي أيضًا فتًى 'عشيقي،' وقد رحل مثل فيليب وجيمس، وربما إلى منطقة المعارك المروّعة نفسها من فرنسا. وكان اسمُ عشيقها بيلي. لا تُشير إليه ميلي كثيرًا باسمه، بل تقول 'عشيقي' حتى بات هذا الاسم من الواجبات، على غرار الدرّاجتين 'الأولى' و'الثانية'. فلم يكن في وسع جين أن تعرف إلى أيّ مدى كانت ميلي قريبةً منه، أو هل عرفته حقّ المعرفة. لكن لو كُتب لهما أن يتزوّجا، لما دُعيا بغير ميلي وبيلي. ربما كان 'عشيقي' وهمًا اخترعته ميلي، وهمًا لا يستطيع أحد نقضه، أو يرغب في ذلك. فالحربُ باتت عُذرًا يناسب كلّ شيء.

كان يا ما كان، كانت هناك خادمة اسمها جين فيرتشايلد، وصلت صغيرة إلى بيت بيتشوود بعد زوال عاصفةٍ حربيّة من الدّمار الرّهيب. وكانت العائلة تعاني، مثل عوائل كثيرة، من سوء الأحوال وانخفاض المداخيل، فانخفض معدّل صرفها على البيت، وسرّحت من الخدم الكثير. والآن، ما عاد هنا سوى طاهية وخادمة. الطاهية ميلي، وبسبب أقدميّتها،

(2) نوع من الدرّاجات تكون فيها العارضة الواصلة بين المقعد وحامل المقبضين مقوّسة إلى الأسفل لتوفير مساحة لتنانير السيّدات كي تنسدل. وهو تصميم قديم. (م)

رُقّيت من طاهية إلى مدبّرة منزل، لكنّها تشبّثت بالمطبخ. بينما هي، الخادمة الغرّة الجديدة، لم يطُل بها الوقت لتتولّى مهام تدبير المنزل.
ولم تمانع أيًّا من ذلك. لقد أحبّت ميلي.
إن الطاهية ميلي تكبرها بثلاث سنوات فقط. لكن بدا أن رحيل 'عشيقي' ضاعف بسرعة وزنها ورهّلَ خصرها، ونفث حول شخصيّتها شيئًا من الحكمة، وهكذا غدت –ربما– مِثال الأم التي طالما أرادت أن تكونها. وربما راح 'عشيقي' يتحوّل شيئًا فشيئًا إلى طفلٍ لها.
واليوم، لو أنّ درّاجتها تحمّلت وزنها وأوصلتها إلى المحطّة، فإن الطاهية ميلي ستذهب لزيارة والدتها.

«بالطّبع، لكِ ذلك يا جين.» هذا ما قاله السيّد نايفن، بينما يُدخل منديل الطعام في الحلقة الفضيّة. هل فكّر أن يسألها إلى أين هي ذاهبة؟
«لكِ الدرّاجة الثانية تحت تصرّفك، وفي جيبك –إحم– قرشان وستّة بنسات، ولكِ المُقاطعة كاملةً لتجولي فيها، شرطَ أن تعودي إلينا مرّة أخرى!»
ثمّ، وكأنّه غبطها بعض الشّيء على الحريّة الواسعة التي ضمنها لها، قال: «إنّه يومك يا جين. ولكِ –إحم– أن تستخدمي ما شئتِ من وسائلك.» لقد عرف الآن أنّ هذا الإذن الأخير ليس كثيرًا عليها، ولربما كانت إشارة لطيفة ومديحًا لعادتها الدائمة في القراءة. ولظنّت الطاهية ميلي أن الوسائل تعني ملاعق 'المطبخ'.

بالطّبع، لم يكن يقصد بالوسائل أيّ شيء عدا الكتب.

كُنّا في الثلاثين من آذار عام 1924. وكان أحد الأمومة. وعند ميلي أُمٌّ تذهب لزيارتها. لكن مدبّرة منزل آل نايفن ليس عندها سوى حُريّتها، ونصف كراون، لتزجي بهما الوقت. ثمّ رنّ الهاتف، وتغيّرت بسرعة خطّتها السّابقة. لا، لن تحضّر لها ما تتناوله بدلًا عن حشو السلّة به للآخرين.

وكانت خطّة جديدة لم تكن تأمل بأفضل منها، فحتى لو كان السيّد بول والسيّدة هوبداي لا ينويان التواجد في حفل هينلي، فما زال السؤال قائمًا عن كيف سيقضيان ذاك اليوم معًا. وهو سؤالٌ ما زال حتى الآن مفتوحًا.

لقد امتلك كلّ واحدٍ منهما عربة. أجل، الشُبّان والشّابات في مثل وضعهما يستطيعون امتلاك عربات. وكان أحيانًا يشير إلى عربتها بالقول 'سيّارة إيما'. سيكونان بالطّبع واعيين بوسائلهما المتاحة، وأنّهما لو لعبا البطاقات بشكل صحيح، فلهما –لو كانت تلك رغبتهما– أن يستغلّا المنزلين الشّاغرين المُعِيْنَين على ما نوياه. لو تمعّنت في المسألة، فالمقاطعة كلّها، من أوّلها إلى آخرها، تمتلئ بالبيوت الشاغرة مؤقتًا اليوم، ومُتاحة للّقاءات الغراميّة. هذا لو كانت هي تعرف بول شيرينغهام حقّ المعرفة، لكن...

تمامًا! إنها تعرفه ولا تعرفه. خبرَت بعض الجوانب منه أكثر من أيّ شخص آخر–ولطالما كانت أكيدةً من ذلك– بينما يتوجّب ألّا يعرف

أحد إطلاقًا عن معرفتها هذه. لكنّها تعرفه جيّدًا وبما يكفي لتقول أيّ الجوانب منه غامضة وغير مفهومة. لم تستطع القول ما الذي يدور في ذهنه الآن، بينما يستلقي عاريًا جوارها. ولطالما اعتقدت أنّه لا يفكّر في شيءٍ بتاتًا.

لم تعرف كيف كان سلوكه مع إيما هوبداي. لم تعرف إلى أيّ مدى كانت إيما هوبداي –الآنسة هوبداي– تعرفه. لم تعرف أساسًا إيما هوبداي. لم ترها سوى لمْحًا، مرّة أو مرّتين، فكيف لها إذًا ألّا تجهلها؟ تعرف أنها كانت فاتنة، تحمل ذاك الجمال المُزْهر بشكلٍ من الأشكال. كانت من تلك الفتيات التي يمكن تسمية الواحدة منهن بالزّهرة، والتي ترتدي فساتين مشجّرة. لكنّها لم تعرف كيف كانت تبدو، على حقيقتها، تحت الزّهور. كيف لها ألّا تجهلها؟ ولم يكن بول يتحدّث عنها سوى باقتضاب، رغم أنّه مُقبلٌ على الزواج بها، وفي هذا دليلٌ على أنها ما زالت تجهل بول شيرينغهام أيضًا، لكن جهلها وضعها في حَيرة أراحتها. وما وجدته غريبًا، هو ما كان يحدث أمامها، إذ كلّما اقترب زواج بول شيرينغاهم من إيما هوبداي، قلّ الوقت الذي يقضيانه هما معًا. وقد سمعت عن ذاك التقليد القاضي بأن على العروس والعريس ألّا يرى بعضهما بعضًا خلال اليوم السابق لحفلة الزواج (أو ربما في الليلة السابقة وحسب؟) لكن كأنّ ما تشهده هو نسخة مطوّلة من ذاك التقليد، وقد امتدّت بعضَ الوقت. لابد له، بالتأكيد، أن يُظهر الاشتياق لها كزوجٍ مستقبليّ.

وإذًا، ذاك تعبيرٌ وردَ إلى ذهنها، ما استدعى تعبيرًا آخر من كتاب ما، وقد تجلّى أمامها واقعيًّا: 'زواجٌ مُدبّر'.

وهذا ما كانت تأمله. ولا يعني ذلك أنها ارتاحت. لكن، لأيّ سبب كان،

لو أنّه يسعى إلى هذه التّوليفة بين زهْرٍ ومال، فإنّ هذا اليوم –وهذا ما كانت تعتقده بينما تقف إلى طاولة الإفطار، والسيّد نايفن يتكلّم عن سلّة النزهة– هذا اليوم الذي انطلق بأشعة شمسٍ واعدة هو الفرصة الأخيرة للّقاء. لم تعرف أكانت فرصتها هي، أم فرصته هو، أم فرصتهما معًا.

على أيّ حال، لقد استعدّت لفقده. فهل استعدّ لفقدها؟ ليس لها أيّ حق في النظر إلى علاقتهما على هذا النحو. وهل كان لها الحقّ أصلًا في التفكير بأنها ستفقده؟ وهل حظيت به أساسًا لتفقده؟ أوه، أجل، لقد فعلت.

لم تتصوّر ما سيكون عليه حالها عند فقده، ولم تُرِد التفكير في الأمر، رغم أنّه لا محيد عن فقده. ربما كان كلّ ما طرأ على ذهنها، صباح أحد الأمومة، وهي تجدّد القهوة على طاولة الطعام في منزل بيتشوود، أنّه لو كان سيلعب بطاقاته هذا اليوم، فالصّحيح هو أن يلعبها لصالحها. وكان أملًا ضئيلًا، حتى رنّ الهاتف. «رقمٌ خاطئ.» واضطرم قلبها.

«ستغادر العصابة المنزل بعد قليل. سأغدو مختليًا بنفسي هنا. في السّاعة الحادية عشرة عند الباب الأمامي.»

كان يتحدّث بهمسٍ صارم، وكأنّه يرى ورطتها ويراها ويرى باب غرفة الإفطار المفتوح. لقد كان يأمرها، أمرًا مقتضبًا، لكنّه كفيل بقَلب حالها. وأنصتت إليه بصبرٍ جميل، أو تظاهرت بذلك، وكأن من يهاتفهم ثرثارٌ وفي مأزق، ولم يدرك بعد خطأه.

«إني أعتذر منك أشد الاعتذار، سيّدتي، لكنّك طلبتِ الرّقم الخطأ.»

يا للبراعة التي راكمتها خلال سنوات سبع لادّعاء الأسف. ولأمور أخرى أيضًا. لكن ما زال عليها أن تعي ما يحدث: سيكونان وحدهما في بيت

شاغر. لم يحدث ذلك من قبل. وعند الباب الأمامي! لم ترْقَ في حياتها السّابقة كلّها إلى درجة أن تُدعى للدخول من أيّ بابٍ أمامي. عدا في أحايين قليلة من أيّامهما الأولى معًا، ولم تعنِ شيئًا سوى اجتهاده في الحفاظ على المطلوب منه، الحفاظ على مركزه، حتى أمامها.

«لا بأس، سيّدتي.»

إن انهماك السيّد نايفن في قضم الخبز المحمّص بالمربّى ساعد في تمويه ارتباكها.

«رقم خاطئ» قالت، ثم مدّ يده لها بالنصف كراون.

وعلى افتراض أنّه على علم بالأمور التي قامت بها سابقًا من أجل بول شيرينغهام –لِبول شيرينغاهم– أجل، مقابل ستّة قروش فحسب، وأحيانًا أقل. وبعدها بوقت قصير مقابل لا شيء؛ مجرّد اهتمام مشترك بالتبادُل ملغيًا أيّ حاجةٍ للدّفع. ثم ماذا؟

لكنّها، حين بلغت الثمانين من عمرها أو التسعين، وكانت تُسأل حتى في المقابلات العامّة، وفقًا لمركزها، أن تتذكّر سنواتها الأولى، كان يمكنها الادّعاء صادقةً (لكنها لم تفعل) أن أحد أوضاعها التي عاشتها في الحياة كان العُهر. يتيمة. خادمة. عاهرة.

نفضَ رماد السّيجارة في المنفضة التي تزيّن بطنها.

وكانت عشيقةً سريّة أيضًا. وكانت صديقةً في الخفاء. لقد قال لها ذلك مرّة: «أنت صديقتي يا جيجي.» قالها واثقًا وكأنه يُعلنها صراحةً، ما أصاب رأسها بخفّةٍ لذيذة. لم يدعُها أحد بمثل ذلك قط، أن تُكنّى هكذا على نحوٍ حاسم، وكأنّه يقول لها أنّه لا أصدقاء له سواها، وأنه في الحقيقة اكتشف توًّا معنى الصداقة. ولن تقول لأحد عن هذا البوح الذي شهدته.

لقد راح رأسها يسبح. كانت في السابعة عشرة من عمرها عندما توقفت عن أن تكون عاهرة. إنّها صديقة. ذاك وضعٌ أفضل ربما من حبيبة. ولا تعني هذه الأفضلية أن وضعيّة 'حبيبة' كانت مُدرجة بينهما في معجمهما اللغويّ، أو حتى في تفكيرها. غير أنها ستحظى بأحباب لاحقًا. في جامعة أوكسفورد. ستحظى بكثيرٍ منهم، وستفكّر في الأمر مليًّا وتسأل نفسها: كم واحدًا منهم صديق؟

وهل كانت إيما هوبداي، رغم كونها عروسه المنتظرة، صديقته؟

على أيّ حال، لا يهمّ أكانا صديقين أم حبيبين، أم مجرّد السيّد بول وخادمة منزل بيتشوود الجديدة، والتي وقعت عينه عليها يومًا ما في مكتب بريد تايثرتون، فقد قاما معًا بكلّ ما يمكنهما القيام به، وفي الأماكن السريّة المتاحة كلّها. بالكاد تصل المسافة الفاصلة بين مزارع منزل آبلي ومنزل بيتشوود إلى ميلٍ واحد، هذا إذا سلكْتَ الدروب الخلفيّة وقطعتَ –مضطرًّا بالطبع– الحديقة. المشاتل والأجزاء الشاغرة من الاسطبلات هي خلوات دائمة لهما. وكان يجري ترتيب ذلك بغرابة شديدة، بمجرّد اتّباع حدْسٍ ذاتيّ ما، أعطوه ثقتهم الكاملة، ورغم عبثيّة المواعيد، فإنهما اعتادا ترتيب الأمر على هذا النحو في ما يشبه التخاطر بين الأصدقاء الحقيقيين. وكأن كل لقاء لهما هو محضُ

صدفة رتّبتها الأقدار، لكنهما يعرفان أنها ليست كذلك.
إذًا– كانا حقًّا عشيقين؟
فقد شهدا في أحوالهما معًا انجذابًا طاغيًا غريبًا لهذه التجربة التي يخوضانها، ووعيًا مُشتركًا بأن ما يقومان به هو أمرٌ خاطئ، (من حولهما كان العالمُ في حداد) ولذا يحتاج لقاؤهما إلى بعض الخفّة والطّيش: إلى ضحكٍ رقراقٍ هامس وخبيث. وبدا في بعض الأحيان أنهما يلتقيان فقط لنيل هذا الضّحك وإطلاقه، وهو هدف خطير في ظلّ التهديد المستمرّ بأن ينكشفا، يجب ألّا يعرف أحد مهما كان عن هذه العلاقة.
وما هو لافت للنظر الآن، رغم دمائته، وحركاته المتعالية غير الخائفة، وعُلبة سجائره الفضيّة، أنّه ما زال يكتم ضحكةً من ذلك النوع في داخله. ما تزال هناك. حتى وهما الآن في غِمار التّجربة وقد قطعا فيها شوطًا طويلًا، لا يتلعثمان، وفي إدمانٍ صريحٍ ووجهًا لوجه لهذه اللقاءات، ما تزال تلك الضحكة على وشك الانبثاق دومًا، دون تحذير، ولا تفسير، تتفجّر من كلّ أجزاء هيئته الخارجيّة المفروكة حتى اللمعان.
هكذا، دويٌّ ناشز من الضحك، وكأنّه كان حبيسَ قالَبٍ صناعيٍّ ما، وقد هوى وانكسر.
لكنّه الآن في تمام عُريه، ولا قالبَ هناك كي يتشظّى. ولِمَ عليه أن يضحك على أيّ حال؟ إنه يومهما الأخير معًا.

انطلقت مسرعة على درّاجتها من بيتشوود إلى آبلي. فهي، عندما كان السيّد والسيّدة نايفن على وشك الرّحيل، حرصَت ألّا تُرى مستعجلة

على الإطلاق، ولا أن توجّه درّاجتها جهة آبلي. فعند البوّابة، انعطفت يمينًا كالعادة، لا يسارًا. لكنها، أتبعَت تلك الانعطافة بانعطافتين أُخرَيين عند الزوايا، ثمّ هبّت مسرعة.

ثمّ إنها، وقد اقتربت من آبلي، سلكت مَنْحىً لم تسلكه من قبل قط. لم تدْرُج في الطّرقات الخلفية نحو الحديقة، وتترك درّاجتها خبيئة أجَمةٍ تعرفها جيّدًا من شجر الزعرور، ثم تواصل طريقها بحذرٍ سَيْرًا على قدميها. لا. بل سلكت الطريق العامّة، واندفعت بدرّاجتها داخلةً من خلال بوّابات أراضي آبلي مخترقةً صفوف أشجار الليمون وعبير النّرجس في الهواء.

إنها أوامره. هو من أمرها بذلك. الباب الأماميّ. فقط عندما دارت داخلةً البوّابة، صدمها إحساسٌ بعجائبيّة ما يحدث، بالنّعمة التي لم يسبق أن حظيت بها– أجل، إنّ اليوم هو يومها. الباب الأماميّ! ولابد أنه رغب في رؤيتها مُقبلةً عليه. لكنّها أوقفت عربتها تقريبًا عند رواق المنزل، لا الباب الأمامي –أو قُربَ أحدهما على أيّ حال– ما إن شُرّعت أمامها درفتي الباب الأمامي بسوادهما الصّقيل، وكأن قُدرةً خارقة خفيّة قامت بذلك.

لم تكن متأكدة –وسُرعان ستتأكّد– من أن غرفته تُطلّ على الطريق الموصلة إلى المنزل، طلّة أماميّة. لربما كان مرئيًّا ولوقعت عينها عليه في لحظةٍ ما بينما تدخل البوّابة الخارجيّة، لو كانت تبحث عنه خلال النافذة المفتوحة بين نوافذ الطابق الأوّل. لكنه ظهرَ لها فجأة، خطَا متقدّمًا نحوها، من خلال الباب الذي بدا وكأنّه شُرّع من تلقاء نفسه، كي يُدعى 'سيّدتي' من جهتها، وتُدعى 'ذكيّة' من جهته. أسندت الدرّاجة بسرعة إلى الجدار الأماميّ. رأت أن للبهو، خلف الرّدهة، بلاطًا يشبه

رقعة الشطرنج. ورأت استقامة سيقان الزهور متأجّجة البياض.
«إنها زهور الأوركيد الأثيرة عند أمي. لكننا لسنا هنا للتحديق فيها.»
ثم قادها –أو أنه دفعها بكفٍّ على مؤخّرتها– جهة الدّرج إلى الطابق العلوي. ثمّ جاء دورها هي –ربما– لتُدعى 'سيّدتي'. فما إن دخلا غرفته حتى شرع، بلهفةٍ لم ترها تغمره من قبل، بتعريتها. ربما لم تُتَح له فرصة أن يفعل ذلك من قبل؛ هل يُمكن القول، إن توخّينا الدقّة، أنّه سبق وأن قام حقًّا بتعريتها؟
«قفي هناك يا جيجي، وابقي ثابتة.»
بدا أنه لم يكن يريدها أن تتحرّك، أرادها أن تقف وحسب، بينما راحت أصابعه تتقدّم في حَلّ أزديتها وتحريرها حتى تساقطت حولها. لم يكن الأمر يختلف عمّا كانت تقوم به هي –في بعض الأوقات– عندما تطلب منها ذلك السيّدة نايفن، أن 'تُحرّر' السيّدة نايفن. سوى أنها شعرت، ولا تستطيع إنكار ذلك، بتبجيلٍ وقداسةٍ تغمران كيانه فيما هو يقوم بتعريتها، لا تستطيع أن تشعر بمثلها وهي تؤدي واجبها للسيّدة نايفن. بدا وكأنّه يكشفها ويكتشفها. لن تنسى ذلك أبدًا.
«لا تتحركي يا جيجي.»
وفي خضمّ ذلك، أجالت نظرها حولها في تلك الغرفة الرائعة التي لم تدخلها من قبل. هناك منضدة بمرآة ثلاثيّة مُضلّعة، تحمل متعلّقات مبعثرة على وجهها، أغلبها فضيّة. كرسيٌّ بذراعين وقماشٍ مقلّمٍ بلونَي الذّهب والزّبدة. السّتائر تحمل التقليمة نفسها ومُزاحة تمامًا (بينما هو يعرّيها!) ويُرجفها الهواء بلُطف. نافذة مفتوحة. سجّادة ذات زُرقة رماديّة شاحبة، أمّا أشعة الشّمس فلها لون دُخان التّبغ، وكانت تنصَبّ في الغرفة. سرير.

«ما هذا يا جيجي؟ هل تخفين كنزًا؟»
لقد عثرت أصابعه على ما كان طيّ ثيابها.
نصفَ كراون.

كان أحد الأمومة من عام 1924. وبالطّبع، راقبها السيّد نايفن وهي تقود درّاجتها على مهلها مغادرةً المنزل، فقد جلب عربته الهمبر[3] إلى الباب الأماميّ منتظرًا السيّدة نايفن. ولطالما اعتقدت أن مَن سوف 'يُحرّر' السيّدة نايفن إذا لم تتمكّن من ذلك بنفسها اليوم هو السيّد نايفن. يا لها من مُفردة: 'تحرير'. لقد افترضت أن السيّدة نايفن ستقول، بين حينٍ وآخر 'حرّرني يا غودفري' بطريقةٍ مختلفة تمامًا عن التي تقولها لخادمتها. أو أن السيّد نايفن سيتبرّع بذلك أحيانًا قائلًا: 'هل لي أن أحرّرك يا كلاري (كلاريسا)؟'
لطالما افترضت أن السيّد والسيدة نايفن ما زالا، بين وقتٍ وآخر، يتعابثان ... رغم أنهما قبل ثمانية أعوام شيَّعا 'فتيَيْن بطلَين'. لكنها لم تفترض ذلك وحسب. بل ترى دلائله وعلاماته أحيانًا. فهي تغيّر ملاءات الفراش.
لم تُدرك، حتى في أحد الأمومة، ما هو شعور أن تكوني أُمًّا وأن تفقدي ابنَيكِ خلال شهرين، كليهما! أو ما هو شعور الثّكالى في يومٍ كهذا. لا أبناء ليزوروا المنزل اليوم، ولو فعلوا، فهل سيأتون حاملين باقات ورود وكعك فاكهة؟

(3) Humber.

لكنّ بول شيرينغهام سيتزوّج خلال أسبوعين، وهو الابن الوحيد الباقي من بين إخوته الرّاحلين من آل شيرينغهام. وبالطبع سيكون آل نايفن هناك. لقد كان (أوه، وهو يدرك ذلك تمامًا) الابنَ المُدلّل للعائلتين معًا.

الآن، السيّد والسيّدة نايفن، جالسين جوار بعضهما، في طريقهما إلى هينلي تحت أشعّة الشّمس الربيعيّة. أمّا ميلي فقد سبقتهم جميعًا وركبت قطار السّاعة 10:20 في محطة تايثرتون. ومنزل آبلي ذاك بات الآن شاغرًا لهما بكرمٍ واسع. فالسيّد والسيّدة شيرينغهام –العصابة– غادرا هما أيضًا إلى هينلي، بينما طاهية منزل آبلي وخادمته –آيرس وإيثل– لم يوصلهما أحدٌ إلى محطّة تايثرتون سوى بول شيرينغهام نفسه.

هو من أخبرها بذلك، لكن بعد أن انتهى من تعريتها، أو ما إن وقفت عارية في غرفته المضاءة بالشّمس، وجاء دورها هي لتقوم بتعريته، 'تحريره'.

«لقد أخذتُ آيرس وإيثل إلى المحطّة.»

وما الدّاعي لإعلان أمرٍ كهذا؟ هل له علاقة بما يفعلانه الآن؟ ولقد كان أيضًا –كما انتهى بها التفكير لاحقًا– أمرًا غير ضروريّ البتّة. ففي صباحٍ كهذا، ستكون آيرس وإيثل أكثر من سعيدتين للسّير نحو محطّة تايثرتون، فالمحطةّ أقرب إلى آبلي من بيتشوود المجاورة نفسها.

هل كانت هذه طريقته لتبرير تأخّره المحيّر في الإقدام على مهاتفتها لترتيب اللقاء؟ أم ليؤكّد لها أن المنزل كلّه لهما وأنّهما في أمانٍ مُطلَق؟

فلقد تخلّص من الخدم بنفسه!

لكنّ إعلانه ذاك صدرَ بنبرة صوتٍ لم تعتدها منه، فيها شيء من الخشوع والوفاء. وكأنّه أرادها أن تعرف –كما ستفكّر لاحقًا– أنّه في هذا اليوم المميّز الذي غدا عاليه سافله، دفعَ نفسه وهو كريم المحتد ونبيل النبلاء، إلى لعب دور الأدنى شأنًا. فهو لم يدعُها وحسب إلى منزله، ويفتح لها الباب الأمامي طائعًا ممتثلًا لحضورها، ثم عرّاها وكأنّه عبدها، لكنّه أيضًا وضع نفسه بشكل ما في خدمة الخدم الآخرين. تلطّف مع من هم مثلها.

«أوصلتهم إلى قطار السّاعة 09:40 بسيّارة ماما وبابا.»

والتي ربما غدت مركونة الآن في مكان ما في هينلي. أمّا عربته هو، فما تزال في المرآب الذي كان اسطبلًا؛ عربة سريعة، ينطوي سقفها وصُنعت لتضُمّ راكبين وحسب.

ربما كان يقوم بذلك كل سنة في مثل هذا اليوم. أن يوصلهما إلى المحطّة. ربما تقليدٌ شيرينغهاميّ. لكنّه أردف قائلًا: «أردتُ توديعهما وداعًا لائقًا.»

'وداعًا لائقًا'؟ سوف تعودان ربما بحلول ساعة شُرب الشّاي، فلم يكن رحيلهما أبديًّا.

هل هذه هي طريقته الملتوية ليخبرها أنّ ما يقوم به الآن هو هذا بالضّبط، يودّعها وداعًا لائقًا؟ لم تُمعن التفكير في هذه المسألة وقتها، فثيابه انتُزعت سريعًا ورُميت على المقعد فوق ثيابها، ثم تحرّكا دون طقوس أخرى نحو الفراش.

لكنها ستُمعن التفكير في المسألة لاحقًا. وستتصوّر ما حدث وتتخيله طوال عمرها: امرأتان هلعتان صامتتان، تجلسان في المقاعد الخلفية

لسيّارة صالون سوداء واسعة، وهو الذي يوصلهما، لاعبًا دور السّائق. وربما أنّه، في ساحة المحطة، ترجّل وفتح لهما الأبواب، وساعدهما على النزول بالعناية نفسها التي حلّ بها ثيابها. وربما ظنّت المرأتان أنّه سيودّعهما أيضًا بالقُبَل.

طوال عمرها، ستبقى تحاول أن تتصوّر ذاك اليوم، أن تركّب أجزاء أحد الأمومة ذاك كلّها لتراه، رغم أن تمييز هذا اليوم عن بقيّة الأيام لم يعد له أهميّة، وأن السبّب الرّئيس لوجوده بات سلوكًا شاذًّا من مخلّفات الماضي البعيد.

ربما أن نفثات الدّخان الأبيض لقطار السّاعة 9:40 الذّاهب إلى ريدنغ، وقد أنزلهما عنده، كانت مرئيّة في صفاء السماء الزّرقاء عن بُعد. ربما التقت آيرس وإيثل بخادمتين أو ثلاث مثلهن، ينتظرن أن يقلعن في رحلاتٍ مشابهة (لم تكن الطاهية ميلي بينهم، فهي ستركب قطار السّاعة 10:20.)

الخادمات كلهن. والأمهات مستعدّات وقد أخرجن من الأواني الصينيّة أثمنها وأقلها استخدامًا. الخادمات كلهنّ لهن أمهات يذهبن إليهن.

ولقد تعرّفت على مدبّرة منزل آبلي، تُدعى إيثل بلاي. يا للفأرة الفقيرة. تجاذبت أطراف الحديث معها مرّات عدّة، فهما تلتقيان عادةً أثناء جولات شراء حاجيّات المنزل من بقالة سويتنغ في تايثرتون. احتاجت تلك المحادثات إلى جهد كبير لتتشكّل، ولم تصل قط إلى حدّ النميمة. الطاهية في آبلي كانت كائنًا ممتلئًا، تشبه ميلي بعض الشيء، لكن

إيثل هذه رشيقة، تُشبهها قليلًا. أي أنّه لو كانت هناك إيثل من نوعٍ آخر، إيثل ثانية غير هذه، لما تطوّرت المحادثات فورًا بينهما إلى النميمة وحسب –بينما تميلان على درّاجتيهما جانبًا عند بقالة سويتنغز– بل ولضحكتا أيضًا بعض الضحكات الخفيضة الخبيثة، كما تفعل مع بول شيرينغهام.

رغم ذلك، فإنها لن تخبر إيثل الثانية عن علاقتها بالسيّد بول، سيّد إيثل نفسها. أو أن إيثل الأخرى تلك ستكون على علم مسبق بالأمر، وقد خمّنت ما بينهما. أو أنها كانت لتدخل في علاقة معه قبلها، فالأولويّة لها وستؤول الأمور إليها، فهي في مطال اليد وتحت سقف واحد معه.

وإذاً، كان الوضع، في الحقيقة، أن إيثل لم تكن إيثل الأخرى، بل مجرّد خادمةٍ صغيرة مُطيعة، تقوم بما اعتاد الخدم القيام به دومًا دون أن تشعر بأيّ عناء: تُغمض عينيها وتصُمّ أذنيها، والأهم من ذلك، تُبقي فمها مطبقًا.

قد تكون إيثل تقطع طريقها إلى أمّها اليوم، حاملةً الرّوح الوادعة المُستسلمة نفسها، التي كانت تحملها أيضًا عندما قطعت طريقها لتعرض خدماتها على السيّدة شيرينغهام. بات الطريقان سواسية عندها، لا يمكن التفريق بينهما.

هل كانت تنهمك في النميمة مع آيرس فقط؟ أجل ولا شك. ففي القطار، وبعد انعقاد لسانيهما في السيارة طوال الطريق إلى المحطّة، هل شرعتا فجأة في الحديث؟ هل تساءلتا لماذا يحدث هذا اليوم؟ هل لأنه على وشك الزواج ولهذا فسوف يغادرهما قريبًا؟

أم تُراهما غاصتا في صمتٍ أعمق، إذ لم تعتادا على مرافقة بعضهما هكذا في عالمٍ خارج المنزل، بحيث ذُكّرتا أن لهما حياة وأمّهات أيضًا؟

هل اكتفتا بأن حدّقتا ببلاهة ورمشت أعينهما لمرأى أرض إنجلترا المغسولة بالشّمس والمرقّطة بالخراف؟
وبول شيرينغهام كان يعرّيها بطقوسيّة دينيّة.
«لا تتحركي يا جيجي.»

بينما كان يحرّرها من ثيابها، قال وكأنّه يجيب على سؤال آخر من أسئلتها التي لم تتفوّه بها: «أحاول أن أتدارك الوضع قبل الامتحانات. أحفظ كتبي القانونيّة تلك. هذا ما أفعله هذه الأيام. أتدارك الوضع» من المفترض أن يُطلق كلامه هذا إحدى تلك الضحكات الخفيضة الخبيثة، أكان منه أو منها، لكن لم يحدث شيء. فلقد كانت نبرته تعليميّة ومستعجلة، وكأنّه يقول لها لو أنها سُئلت يومًا ما –استُجوبت– فهذا ما عليها قوله عمّا يفعله هو، أو يفعلانه معًا.
ولسوف يتسلّل هذا التعبير إلى معجمها اللغويّ الغامض وقتها، ويمكث فيه عالقًا زمنًا طويلًا بما لا يقال. ولن تتمكّن لاحقًا من سماع ذاك التعبير بالخفّة نفسها، حتى في جامعة أوكسفورد، حيث كثيرٌ من 'تدارك الوضع' يجري هناك.
إنّ قدرته على المَكْر هي ما دبّرت أمر انسحابه من رحلة هينلي وتأمين المنزل شاغرًا له، ولها. لكنّه بدا، في الوقت نفسه، وكأنه يُنهي بهذا عهدًا قديمًا ليبدأ آخر جديدًا: عهدًا فاضِلًا يعترف فيه بمسؤولياته المستقبليّة. عندما يتزوّج إيما هوبداي سوف يسكنان لندن (هذا ما تعرفه مسبقًا وتقبّلته على مضض.) ومن المفترض به أن يصنع من

نفسه رجلًا شريفًا، وأن يعيش حياةً شريفة بدراسة القانون ومزاولة المُحاماة، بغضّ النّظر عن طريقه الجديد المفتوح نحو 'الغنائم'.
كيف للزّمن، حقًّا، أن يتغيّر.
ولذا، حتى في هذا اليوم، حتى في هذا الصباح العظيم، سيستعرض التزامه بتلك الخطّة في مشهدٍ يتناول حرصه على الدراسة و'تدارك الوضع'. ولم يكن هذا التصرف غريبًا وحسب، بل ويشذّ تمامًا عن شخصيّته وطِباعه، لكن يصعب الاعتراض عليه. بقي أسبوعان فقط. ربما هذا هو منبعث تلك الفورة من الوعي والعقلانية. وربما هذا بالضبط ما يدفع الآخرين في هينلي إلى التضاحك فيما بينهم الآن، ربما.
غير أنّه يعرف، كما أنها تعرف –هل كانت السيّدة هوبداي تعرف؟– أنّه لا يحمل من العزم ما يكفي كي يتحوّل إلى محامٍ.
«نحن نتدارك الوضع يا جيجي.» جوابٌ في حال تساءل أي أحد.
بقي سؤال واحد دون جواب، فهو لم يُسأل البتّة. لم تجرؤ هي على سؤاله، ولم ترغب في ذلك. فالخيار خياره في القول أو الكتمان.
على افتراض أنه (أنّهما) لن يبقيا –يتداركا الوضع– طوال اليوم، فما هو الترتيب الآخر، والذي أعدّه مسبقًا، مع السيّدة هوبداي؟

إنهما يستلقيان جنبًا إلى جنب، دون غطاء، كُلٌّ ينفُض سيجارته، دون كلام، يراقبان عمودين من الدخان يعلوان منفصلين ليمتزجا أخيرًا عند السقف. بقيا يدخنان، وبدا أن امتزاج دخّانَيهما كان كافيًا لهما بعض الوقت. وفكّرت في نفثات الدخان الأبيض الصّاعدة من

القطارات. سيجارتاهما، اللتان تنتصبان بين حين وآخر باستقامة بين شفاههما، كانتا شبيهتين بزوج مداخن مصغّرة.

لا يتناهى إلى سمعَيهما سوى أغاريد الطيور من الخارج؛ والصّمت المسموع، صمت الأنفاس التي زالت من البيت الشاغر؛ ورجفة الهواء الضعيفة حول الجسدين، تذكّرهما بينما يحدّقان مليًّا في السقف، أنهما عاريان تمامًا. سمكتان في صحنٍ أبيض. عبرت هذه الصورة خيالها. سمكتا سلمون ورديّتان تزيّنان سطح طاولة طعامٍ أملس، تنتظران الضيوف، ضيوف حفلة زواجٍ ربما، ضيوفًا لن يأتوا أبدًا...

لا تريد أن تفه بكلمة، ولا أن تسأل شيئًا، لا تريد لأيّ أمرٍ أن يفسد احتمال أن يبقيا هكذا إلى الأبد.

إنهما في وضعٍ يسمّى 'استرخاء' كما قالت لنفسها، رغم أن هذه كلمة ليست في مُعجم الخَدَم اللغويّ. إنها تعرف الآن كثيرًا من الكلمات التي لم تدخل قط مُعجم أيّ خادمة. من بينها كلمة 'مُعجم' نفسها. لقد جمعتها مثل تلك الطيور التي تبني أعشاشها في الخارج. وهل ما تزال الآن 'الخادمة' بينما تستلقي هنا على فراشه؟ وهل ما يزال هو 'السيّد'؟ إنّه السّحر عينه، السّياسة المكتملة للتعرّي.

بل أكثر من استرخاء، إنّه: سلام.

بيدها الطّليقة، بينما الأخرى ترفع سيجارتها، فركت قضيبه اللزج دون النّظر إليه، شاعرةً به ينتعظ بمجرّد لمسه، وكأنه طيرٌ صغيرٌ نائم. تقوم بذلك وكأنها قضت حياتها تفعله، مثل ثريّةٍ كسولة تمسّد جرْوها. لكن اليد نفسها، قبل لحظات، كانت ملتوية إلى الخلف وتتمسّك بأحد قضبان هيكل السرير النحاسيّ –هذا السّرير الذي لم تكن فيه من قبل– وبيدها الثانية راحت تضغط –مبسوطة الرّاحة– بينما أصابعها

تبحث عن مكان التحام جذر عضوه بعموده الفقري. كانت تأمره وتقوده. وهل من أوامر أشدّ وأكثر ميلًا للطاعة من هذه؟ غير أنّه أمرها أيضًا: الباب الأماميّ.

والآن، يبدو أن ما فعلاه كان مجرّد فتحٍ للباب المُفضي إلى هذه الحالة السّامية من العُري المشترك المحض.

السّلام: إنّه الحقيقة الموجودة في أيّ زمن، والحقيقة المبتذلة في أيّ يوم، لكنه بات في ذاك اليوم تحديدًا أكثر صدقًا وتحقُّقًا من أيّ وقتٍ آخر: لم يمر يومٌ كهذا، ولن يتكرّر أبدًا.

سيجارتها على وشك الانطفاء. نقلت المنفضة (تملك السُّلطة للقيام بذلك طبعًا) إلى الملاءة المكوّمة بينهما. إنّه بطنها، ربما قالت ذلك، وليس طاولة. لا تريده أن يسحق عقب سيجارته فيه– بقدر ما كان يعجبها تصوّر الأمر في الحقيقة. ويا للذكرى التي ستزورها دومًا: تلك المنفضة وهي ترتاح ببرودة على بطنها.

ثمّ تمنّت لو لم تكن متسرّعة، لو لم تطاوع ما تُمليه عليها حساسيّتها المُفرطة، لو أنها لم تفعل شيئًا ممّا فعلت.

رفع سيجارته عن شفتيه، وبساطة أمسكها مسندًا كفّه إلى بطنه.

«يجب أن ألتقيها في الساعة الواحدة والنصف. في فندق البجعة في بولينغفورد.»

ما كان ليتحرّك قيد أنملة لو لم تفعل ما فعلته، لقد أبطلَت السّحر. وهو على أيّ حال ما توقّعت حدوثه، رغم ظنّها أنها نجحت في التغلّب

على تلك الـ'يجب' بقوّةٍ سحريّة ما. ماذا عن بقيّة يومها؟ ألا يمكن لجزء من هذا اليوم (هل يمكنه؟) أن يمتدّ إلى الأبد؟ لكنّ شذرةً من الحياة لا يمكن أن تكون الحياة كلها.

لم تجفل، لكنّها ربما، داخليًّا، صارت منتبهة. وكأن ثيابها بشكل خفيّ قد عادت تسترها، وكأنها عادت إلى دور الخادمة.

ولا هو جفل، وكأنّه في سكونه يقاوم -يناقض- ما فاه به توًّا. لم يكن عليه أن يلتزم بموعده، أليس كذلك؟ ومن قال إن عليه؟ لم يكن عليه أن يقوم بأيّ شيء لَعينٍ دون رضاه، أليس كذلك؟ يستطيع ببساطة أن يستلقي هنا ويُهمل موعده.

وقد قال 'ألتقيها،' لا ألتقي 'إيما'- وكأنّ الضّمير إشارة مشتركة ومفهومة لكليهما. وقال 'يجب'.

سيجارته على وشك الانطفاء.

لم يتحرّك، ولم تتحرّك، وكأنّه لم يفه بشيء منذ لحظة. وبالدرجة نفسها، فإن أقلّ حركة منها، دع عنك أقلّ صوت، أو كلمة، قد تعني تأكيدًا لحقيقة أنّه قال شيئًا قبل لحظة. وبالتالي فإن عليه الالتزام بتنفيذه ومواجهة تبعاته.

لم يكن المكان مكانها على أيّ حال، بعد أن ارتدت ثيابها الشبحيّة وعادت خادمة. لم يكن مكانها لتقترح أيّ شيء أو تفعل ما هو أبعد من الانتظار. إنها سنوات من التمرين والامتثال قامت بصقلها جيّدًا. إنهم مخلوقات مزاجيّة وصاحبة هوى. قد يكونون لطفاء معك في لحظة ما، لكن ما إن ينهشوا أو ينبحوا فإن عليك أن تقفز فورًا، أو أن تتحمّل ما أتاك وتمضي في سبيلك دون اهتياج. أجل سيّدي، حاضر سيّدتي. وعليك دائمًا -وهذه نصفُ الحيلة- أن تكون مستعدًّا لأيّ شيء مماثل.

ثم طرأت عليها فكرة أن الأمر كلّه معكوس. في هذا اليوم الذي غدا عاليه سافله. إنها تستلقي هنا معه في غرفته، كأنّها زوجة، بينما هو بكلّ وقاحة يستشيرها في ما إذا كان عليه أن يذهب للقاء عشيقته المزعجة. ربما بعض الأزواج، الذين هم على شاكلته وفي مستواه، يفعلون ذلك ويستسيغونه. ألم تكن فعلته تلك، في لُبّها، شبيهة بهذا؟ لكنّه لم يتزوّج بعد أيًّا منهما. إنّها وإيما هوبداي متساويتان.

لم يفه بحرف، وكأنّ الصّمت بعد ملاحظته تلك، بكلّ ما تحملها من دعوة للعودة إلى الانضباط، سوف يلغي كل شيء. لقد كان قادرًا بالطّبع على تلبُّس هذا الأسلوب المقيت من الدماثة. ليربح الطرفين. فلم يكن مخادعًا (هل كان؟) كلّ ما فعله هو أنّه لم يسلك الأسلوب المتعارف عليه في التعامل مع أمرٍ كهذا. بل اتّبع أسلوبه هو: لقد أساء التصرّف، لكنّه لم يُنكر ذلك.

ولقد أوصل آيرس وإيثل بكُلّ نُبل إلى المحطة.

ولم تكن لتقول له، مثل زوجةٍ رائعةٍ وَلُود: 'إذًا من الأفضل أن تنهض الآن فورًا، هلّا فعلت؟' هل كان هذا ما يطلب منها قَوله فعلًا؟

كان لصمته المتطاول أن يهبها قوّة مُطّردة، أو امتثالًا تامًّا. لكنّها تعبُر الآن إلى غير رجعة، تلك اللحظة المناسبة ليقول فيها 'لكن ألا تظنّين أنّ أمامنا اليوم بأكمله لنا، يا جيجي، أليس كذلك؟' مُزيحًا كفّه إلى حيث كانت المنفضّة على بطنها، أو أدنى بقليل.

يجب أن يحدث اللقاء. سوف يذهب إليها، ويتناول الغداء معها، وربما بطريقة أو بأخرى، مع مضيّ اليوم، سوف يقوم بما يحقّ له معها كما تقتضيه علاقتهما. لو كان بينهما بالطّبع مثل تلك الأمور. ولربما عاد بها إلى هنا من أجل ذلك. إلى هذه الغرفة تحديدًا. لم تسأله متى يتوقّع

عودة 'العصابة إلى المنزل. ولسوف يكون مسؤولًا عن التّبعات. غير أن غداء هينلي وقتها سيكون على وشك البدء.

والآن، وقد غيّمت خطّة غدائه المفاجئة على الجوّ، بينما ملابسهما ما تزال مكوّمة بعضها فوق بعض على المقعد، فإن لحظتهما معًا غدت إلى زوال، ولم يكن يملك من الوقت الكثير.

لحظتهما؟ يا لها من مُفردةٍ حقيرة. ساعتهما؟ يومهما؟ هديّتهما؟ مهما كانت، فإنها إلى زوال قريب، وقد انزلق اليوم أيضًا إلى ما بعد منتصف النهار. لابدّ وأنه نظر إلى الساعة الصغيرة، أو إلى ساعة جيبة الفضيّة، الموضوعة على المنضدة، حين قام لجلْب علبة السجائر.

هناك أيضًا احتمال الحقيقة الأخرى الرّاسخة، وهي أنّ شيئًا من ذلك لم يحدث. وبلى، إنّ عليها أن تكون ممتنّة، ممتنّة إلى الأبد. «أردتُ توديعهما وداعًا لائقًا.» ولكانت هي الآن تجوب أرجاء مقاطعة باركشير بدرّاجتها.

ولربما، بالأسلوب السريّ نفسه، دعاها إلى هنا. وأن مكالمته الهاتفيّة كانت لمقرّ سكن آل هوبداي. وربما كان لها 'إيما' أن تجيب على الهاتف بالادّعاء والمكر ذاتيهما (هل كانا يتواصلان بالطُّرُق نفسها؟) ولانتهت إلى هنا، تسحق الطريق بعربتها 'سيّارة إيما' ولكانت هي التي معه هنا الآن. لكنّها لم تستطع تخيّل ذلك. فستانها المشجّر على الكرسي، مع قطع ثيابها الداخليّة الحريريّة. كانت هي في الواقع من ينام هنا الآن، ألا تكون ممتنةً إذًا لذلك؟ حتى لو كان يستلقي هنا إلى جوار الأخرى لاحقًا. اثنتان في يوم واحد. هل هذا ممكن؟ فندق البجعة عند الساعة الواحدة والنصف ظُهرًا. لكنها لم تستطع أن تتخيّل ذلك.

ثمّة فكرةٌ مشوّشة في عقلها الباطن، تقول لو أنّ زوجة المستقبل تلك

كانت «مدبّرةً» بالفعل، فإن هذا التدبير يتضمّن كونها دون عيوب: عذراء، مُصانة، لم تُمسّ. كما لو أنّه سيتزوّج مزهريّة جديدة. وعلى غرابة ذلك –أن يُعاهد نفسه على الزواج من مزهريّة– فإن فكرتها المشوّشة تلك تحمل شيئًا من الحقيقة. أو ربما ثمّة أسباب أخرى تُخمد تمامًا أي توثّب له نحو المرأة التي سيقترن بها. ولولا حقيقة أنّه يستلقي إلى جانبها الآن وهنا، لتوصّلت إلى فكرة واضحة عمّا يحدث.

على أيّ حال، فبعد دقائق من الجمود، من التكاسل الثقيل، تحرّك فجأة، هبّ مالئًا رئتيه بنفسٍ طويل، حتى أن الفراش تحرّك مثل قارب. تناول المنفضة التي انزاحت قليلًا وسحق عقب سيجارته بوحشيّة فيها. حينها فقط، بينما ترفع إحدى ركبتيها لتوازن الفوضى التي خلّفها، شعرت بأشياء تسيل بين فخذيها على الملاءة. راحت بِذارُه تنساب منها وتغادرها مع سوائل تخصّها. إنّ لديها كلمات أخرى غير 'بِذار' لكنّها أحبّت مفردة بِذار. كان لذلك أن يقع في أي لحظة، لكنّه لم يحدث سوى الآن، رفقةَ حُزنها المنساب أيضًا، وكأنّ ذلك هو ردّها على طعنته. حسنٌ، سيصبح من الصّعب عليه لاحقًا أن يكون معها هنا، تلك المُزهرة، لو كان ذلك جزءًا من خطّته.

إلّا إذا طلب منها فورًا أن تغيّر الملاءة، فما تزال خادمة وإن كانت في غير منزله.

ولتَسَبّب ذلك في نقاش فظيع. فذاك ما تعتمد عليه الحيوانات، والتي لا تتعاهد على زواج ولا تحظى بخدم. إنها تُحدّد أماكن نفوذها بسوائلها.

ما كانت تنوي أن تقول له، وقد وقف على قدميه واتّخذ قراره 'أرجوك لا ترحل. أرجوك، لا تتركني'. فهي غير مؤهّلة للانتماء إلى الطبقة العُليا التي تحدُث فيها مثل تلك المشاهد الدراميّة. إنّها تزدري مثل تلك الموقف على أيّ حال. وكأنها لم تستطع –لكنها ليست زوجته، والأمر كله مقلوب رأسًا على عقب– أن تستخدم لغةً مختلفة، لغة أهدأ لكنّها أشدّ قسوة. أو تكتفي بالنّظرة الرّصاصة.

على أيّ حال، هناك ما يتقطّر بين فخذيها.

جابَ غرفته كلّها. ربما نهض فقط ليتأكّد من الوقت. مرّة أخرى حظيت بفرصة أن تراه في عُريه الفظّ الشّرس. أجل، إنّ له طريقةً في المشي تختلف عنها وهو في ثيابه: مشية حيوان.

وعندما وصل إلى المنضدة، دار نحوها، وهو مُمسك بساعته. لم تتزحزح، لم تجرؤ على تبديل حالها بحالٍ آخر. فرُكبتها المُغوية، مرتفعة على حالها، وليس إلا عريها المكشوف ما لديها لتدفعه إلى التفكير ثانية. وكان ينظُر إليها، ويُطْعِم عينيه ما يرى، مرّة أخرى، دون حياء من شكله ولا منظره. بات قضيبه أكثر امتلاءً من ذي قبل، غير أنه ما يزال يتدلّى لا أكثر. والآن، راح يؤرجح السّاعة بيده دون تكلّف، ولا هدف، بينما يُمعن نظره فيها.

«إنّها بالكاد الواحدة إلا ربع، إذا أسرعتُ فسأتدارك الوضع. سنلتقي في منتصف الطريق إلى فندق البجعة. إنها تعرف العاملين هناك. هي مَن اختارته.»

وكأنها، خادمة منزل بيتشوود هذه، تعرف أيّ شيء عن فندق البجعة في بولينغفورد، أو الزّمن الذي تحتاجه للوصول إليه بالعربة. لكن هل كان يعرف عن ذلك أهلُ الحفل في هينلي؟ هذا الشّاب وهذه الشّابّة

سيُقيمان غداءً خاصًّا بهما. ولا تستطيع لَوْمَهما. فلقد قضى صباحه كلّه، بجدارة، في دراسة كتب القانون!

بقيَت أمامه تلك المهمّة الصّغيرة، مهمّة أن يرتدي ثيابه، أن يجعل نفسه في هيئة مقبولة، أن يُلائم مرّة أخرى أجزاء شخصيّته الخارجيّة ويرتديها. ولم يتعجّل فعلَ ذلك، أو هكذا بدا لها. وكان ينظر إليها، ويُجري نظرته على جسدها بتأنٍّ. ولابدّ أنّه، بالطّبع، لاحظَ تلك البُقعة الصّغيرة التي شكّلتها السوائل بين ساقيها.

لم تعهده، حتى وهو في عُجالة، يتسرّع معها أو يُظهر هياجًا غيرَ سَويّ. ما عدا –وقدا شعرت فجأة أنّه زمانٌ بعيد– اندفاع الأغرار ذاك، والذي لا علاج له. قالت له في بعض الأحيان «بهدوء... بهدوء،» ومثل خبيرةٍ مُجرّبة أخبرته أنّ «في الهدوء تكمن اللذّة.»

حسنٌ، هما الآن خبيران مجرّبان. لم يلتقِ قط من هي أفضل منها، هذا أكيد. وهي بالمثل، لم تلتقِ أفضلَ منه. وذاك يجري الآن في النظرة التي يرميها نحوها. وفي تحديقتها به.

لقد صعُب عليها، رغم تحديقها فيه، أن تحول دون امتلاء عينيها بالدموع، ورغم معرفتها أن سماحها للدّمع بالانسكاب، واستغلاله، هي محاولة ستبوء بالفشل. عليها أن تتشجّع، أن تغدو معدومة الرّحمة تمامًا، ألّا تهبه هديّةً أخيرة بهذا الشّكل.

هل سيأتي عليه وقتٌ وينساها، عاريةً هكذا أمامه؟

وما كان في عُجالة. شمس النافذة أضاءته. وعارضةٌ من الظّلال، أو عارضتان، عبرتا جذع جسده. توقف عن أرجحة السّاعة. إنّ رحلته الوشيكة بالعربة لابدّ وأن تكون مستحيلة السُّرعة.

لم تعرف كيف راكمَ ثقته تلك بنفسه. لاحقًا، بذاكرةٍ مُستعادة،

ستندهش أشدّ الاندهاش من تحلّيه بكل تلك الثقة في تلك السنّ. هل هذه هي طبيعتهم (من هم في مستواه)؟ وكأنّه وُلد بها. ثقةٌ جاءت من انعدام وجود ما يُشغله في الحياة، عدا ثقته بنفسه. لكن ذلك الحال، بالطبع، قد يغرقك في طوفان من الشكّ وعدم الثقة أيضًا. وفي المقابل، محاولة أن تصبح محاميًا، مجرّد محامٍ –لقد شعرَت به ورأته حبيسَ رِداء المحاماة الطويل الأسود– كفيلة بتدمير تلك الثقة كلّها.

ثم فكّرت خلال جزء من اللحظة وبغضب عارم: لنفرض أنها –إيما، الآنسة هوبداي– أتت إلى هنا. لنفرض –وكان العام 1924، أي زمنُ المدنيّة– أنّها أخذت المُبادرة وأتت بعربتها، وأنها وصلت الآن هنا. لِتُفاجئه، لتُنقذه من حالة 'تدارُك الوضع'. في هذا اليوم الفائق الروعة. عجلات العربة ساكنة في ساحة المنزل الخارجيّة. وصوتها المُزهر –مع نغمة خفيفة لفَرَس– يناديه عاليًا، وقد لاحظت النافذة المفتوحة، وتعرف أنها نافذة غرفته: 'أتيتُ لأُقلّك يا بول! أين أنت؟'

ثمّ ماذا؟ لا شكّ يخامرها في أنّه سيتدبّر الأمر كلّه، حتى لو لم يكن يرتدي سوى خاتمه المنقوش. حتى لو كان يقف إلى النافذة نفسها. 'إيمسي! حبيبتي! يا للمفاجأة! أمهليني لحظةً لألبس قميصي، هلّا فعلت؟'

لكن كيف كانت هي، خادمة آل نايفن التي في بيت آل شيرينغهام، لتتصرّف وقتها؟

على سطح المنضدة، إلى جواره، توجد متعلّقات حياته الصّغيرة، العاطفيّة منها والعمليّة، ويُعامل كلّ قطعةٍ منها على أنها قطعةٌ من كنزه المكشوف: أمشاطُ شعره وفراشيه؛ وأزرار أكمامٍ ومُرصّعَات في صناديق؛ وصور في أُطُرٍ فضيّة (وَفْرَةٌ من الفضّة حافظت إيثل على

لمعانها.) إن نفض الغبار عملٌ دائمٌ للخادمات، فضلًا عن تلميع تلك الممتلكات الثّمينة، وهُنّ حريصاتٌ في الوقت نفسه على ألّا يتحرّك غَرَضٌ من مكانه المُعيّن له. في كلّ الأحوال، ترتيب منضدة رجُل هي مهمّة أسهل بكثير من ترتيب تسريحة امرأة.

إذا كانت نشأتك قرينة تلك الأشياء، الشّارات المميّزة والمتعلّقات الشخصيّة، فلعلّه من السهل عليك أن تكون واثقًا من نفسك، دون ذِكْرٍ لما تحمله في جوفها خزانةُ الأدراج في غرفة تبديل الملابس الملاصقة –وقعت عينها سريعًا على أغراضه المُعلّقة هناك بينما يقودها في عُجالة إلى الغرفة– ودون ذِكْرٍ لبقيّة الممتلكات المتناثرة في طول البيت وعَرض. إنّ كل ما امتلكَتْه هي من متعلّقات، وكل ما يمكن ارتداؤه، يُمكن أن يوضع في صندوق واحد. لو كان عليها المغادرة فورًا، وهي على شَفير ذلك دومًا، لما استصعبت المسألة.

لكن تلك الحليّ الصّغيرة، مجوهرات الصبيّ هذا، هي ما تتملّكه، أي ما يؤكّد حضوره: الخاتم المنقوش؛ وساعة الجيب؛ ومُرصّعات الأكمام. وعندما انتهى من ارتداء ثيابه، وقبل أن يغادر، حملَ علبة السجائر والقدّاحة المنقوشتين بالأحرف الأولى من اسمه الكامل. ولسوف يمر بالمشط[4] على شعره. لابد أن أخواه قد ابتاعا تشكيلةً جديدة من تلك الأغراض نفسها، وبمعنويّات عالية، عندما ذهبا إلى فرنسا، لكن لم تُكتب لهما العودة. أعني أشياء من قَبيل فراشي الحلاقة العاجيّة، وأشباهها. إنهما، أخواه، على المنضدة الآن، في أُطُرٍ فضيّة. ولقد لاحظَتْهما لحظة دخولها الغرفة. لابدّ أن هؤلاء هما دِك وفريدي. وكلاهما يرتدي قُبّعة الجيش. لم ترهما من قبل قط. كيف لها أن تراهما؟

(4) Tortoise Shell Comb.

وكانت تنظر إليهما بينما يُعرّيها من ثيابها.

سارَ بُخطىً خافتة من الغرفة إلى الحمّام. وكان لا يزال عاريًا إلا من الخاتم المنقوش. لن يطول به المقام هنا. كان عليه أن يغسل جسده وينشّفه وحسب، أو ما كان يفعله الرّجال عادة. أن يمحو كلّ أثر مباشر لها عنه. وهذه فكرةٌ أتتْها لاحقًا.

وكأنّ الغُرفة راحت تضمّها خلال غيابه القصير، وكأنها تدّعي أنها قطعةٌ من قِطَع أثاثها. لم تتحرّك. وهي تستلقي مثل شيءٍ جامد حقًّا. غير أنها كلّها عبارة عن لحمٍ يشعُر بالوخز. لم يُعطِ أيّ انطباعٍ أو حركة تدلّ على أنها يجب أن ترحل –فالآن وقد نهض، ربما عليها أن تنهض أيضًا. بل على العكس، لم يفاجئه عند عودته أنها في وضع شبه متصلّب وما تزال تستلقي هناك. بل كان –كما ظهر لها– يتوقّع ذلك، وأرادها كذلك. إن له رائحةً الآن، كانت لتستلطفها في وضع آخر، ودع عنك رائحة عرقه الجذّابة. ستفكّر في هذا الأمر لاحقًا أيضًا: لقد تعطّر بالكولونيا. لكنه ما زال عاريًا وغير متعجّل. وقد جلب معه من غرفة الملابس قميصًا ناصع البياض، وصدريّة رماديّة فاتحة وربطة عنق. لكن بدا أن القِطَع الأخرى من ملابسه ستكون هي نفسها تلك المُلقاة على الكرسي. كان يمكنه، بالطبع، أن ينتهي من تبديل ملابسه في غرفة الملابس، لكن ربما هذه هي عادته في كلّ الأحوال، أن يرتدي ثيابه تحت ضوء النافذة، جوار المنضدة ومراياها. غرفة الملابس كانت مجرّد خزانة.

لكن بدا أيضًا أنّه لم يرغب أن ينفصل عنها، رغم أنه على وشك الرّحيل.

كأنّ ما يقوم به هو كلّه لها –أن تراه يرتدي ثيابه، أن ترى عُريه يختفي شيئًا فشيئًا. أو ربما أنّه لم يهتم قط. تلك الثقة الطاغية، واللامبالاة، وعدم تعجّله غير المحسوب العواقب. هل عليها الرّحيل أيضًا؟ لكنه لم يقُل شيئًا، وهي ظلّت –يبدو لها الآن وكأنّها قد أُمِرَت بذلك– في مكانها، بينما عيناه تترحلّان على جسدها حتى وهو يرتدي ثيابه.

لابد وأنّه لاحظَ ما انسابَ من بين ساقيها، لكنّه جزء من رِفْعَته النّاعمة ألّا يُظهر ذلك. ما انساب من بين ساقيها، بالنسبة له، هي أشياء تُشبه ما يتركه متكوّمًا من ثياب على الأرض، ليجدها عند عودته مغسولة ومكويّة، ومُعلّقة في غرفة الملابس. هذه أشياء سوف يُعتنى بها ويُنظّفها أُناسٌ مسؤولون عن تنظيف مثل تلك الأشياء دومًا. وهي، ببساطة، واحدة منهم. إنها فردٌ من الجيش السحريّ الذي قَبِلَ على نفسه هذه المَهمّة. هل كان سيطلب منها، قبل خروجه، الاعتناء بما خلّفاه من فوضى هنا؟ هل سيُعطيها لحظةً رخيصةً تقول فيها له إنّها ليست خادمته؟

لكنّها رأت بينما كان ينظر إليها –وإلى بُقعتها، دليل الجريمة، بالتأكيد– أن مشهدًا قذرًا مثل الذي تخيّلته لم يكن له أن يحدث، وقصيٌّ عن عالم أفكاره. بل إن هنالك نوعًا من اللامبالاة تجعله لا يكترث لأمور صغيرة مشابهة، مثل بُقعة على الملاءة. هل البُقعة، على أيّ حال، هي ما تجب إزالتها؟ أم أنها هي –وهي ليست ببُقعة– من تجب إزالته عن السّرير؟ أجل، لقد أرادها أن تبقى هناك، بينما كان ليكون حالها في حياةٍ أخرى، في قصّة مصوّرة سَوَقيّة، أن تجري نازلةً الدّرج بينما ما تزال تلائم عليها ثيابها. لقد كانت رغبته، قبل أن يرحل، أن يراها هناك، أن يحظى بها هناك، عارية و–من يدري؟– دون حراك تحتلّ

غرفته، لأجل أن تبقى صورتها هناك، مطبوعة في خياله، موسومة هناك، حتى وهو يلتقي مزهريّته.

كانت تفعل الصّواب، مستلقيةً هناك. لقد فهمت الأمر، رغم أنها فهمت أيضًا أن تمدُّدها هناك قد فقَدَ جدواه، فقَدَ رجاءه في أن يعْدله عن الرّحيل. إنّه راحل، هذا واضح. وأرادها، لسببٍ لم تستطع سبْرَ غَوْره، أن تُشاهده، رغم أنها ما تزال تُذيعُ عُريها في المشهد، في مُقابلةٍ لمشهد ارتدائه ثيابه، أن يكسو نفسه مجدّدًا بالحياة التي هي له.

لِمَ كان شديد البُطء إذًا؟

باتت الغرفة الآن ملآنةً بالكمّ الأقصى من الضوء والدفء غير المنتميّين لهذا الفصل من السّنة. عقرب ساعته لابدّ أنه يقترب من الواحدة، هذا إذا لم يتجاوزها. وخطّ الظلّ، العلامة التي تتركها المزولة الشمسيّة على الأرض في حديقة منزل بيتشوود –حيث كان ينبغي أن تكون الآن، وفي حُضنها كتاب– قد زحف قليلًا. لم تستطع أن تتبيّن بوضوح وجه السّاعة الموضوعة على المنضدة، المحروسة بصوَر الأخوين على جانبيها.

هل مرّ يومٌ في الزّمان مثل هذا قط؟ هل يُمكن أن يتكرّر مثله أبدًا؟

إنّها مهمّة إيثل، هذا ما أدركَتْه، أن تتدبّر أمر البُقعة: ما انساب من بين ساقيها وشكّل ما يُشبه البُقعة. إيثل التي قد تكون الآن، هذا ما تخيّلته، جالسة في بيت تنتشر فيه رائحة لحم مشويّ مُكْلِف في هذا اليوم الدافئ، وربّما قُدّمت بالفعل على طاولة الطعام بعض شرائح اللحم. وقد جلست حيث أمرتها أمها أن تجلس دون أن تنهض أو

تحرّك ساكنًا. فهو يوم إجازتها، ألم يكن كذلك؟ اليوم يختلف كل شيء، يتميّز. 'تحدّثي إلى والدك قليلًا يا إيثل' هذا إذا كان لإيثل أبٌ هناك، أو أنّه ما يزال كُتلةً واحدة ولم يحدث أن تشظّى. خلال ساعات لَمّ الشّمل تلك، السّاعات المُزجاة لتكريم الأُم، ستكون والدة إيثل تكدح في المطبخ، وستعيش والدتها ووالدها بعد هذه المناسبة أسبوعًا يُقيمان أوْدهما خلاله بالرّغيف المُغمّس.

لكن إيثل، عندما عادت لمزاولة أعمالها لاحقًا –وربما عادت 'العصابة أيضًا حينها، نشيطَة لكن أرهقَها النهار المشمس وفي حاجة إلى اهتمام– سيلزمها تغيير الملاءات في غرفة السيّد بول، فلم تكن متواجدة مبكّرًا لإنجاز المهمّة أثناء النهار، ولسوف تلاحظ البقعة. ولطالما لاحظت إيثل مثل تلك الأمور، فعملها يقتضي أن تلاحظها وأن تجعلها –في الوقت نفسه وبسرعة– تبدو وكأنّها لم توجد قط.

حتى إيثل تلك، التي جلست قبل ساعات قليلة جلسة ملكيّة أمام اللحم المشويّ، ستُدرك أيّ نوعٍ من البُقع تلك. إنّها من الأشياء المُشتركة التي لابدّ أن تُصادفها مع مَن هُم مثلها بينما يُنظّفنَ غرَف النّوم. وهذا شائع جدًّا إلى درجة أنهنّ، بِلُغة 'تحت الدّرَج'، أطلقن على البُقع أسماء عدّة، منها 'اللقاءات'. هناك تعبيراتٌ أُخرى، بشتى البِدَع والأساليب، من بينها 'خريطة الجُزُر البريطانية!' ولو حدث أن جرى هناك نقاشٌ حقيقيّ، نقاش مِهَنيّ مُريب بينهن، فلربما استخدمن تعبيرًا رسميًّا من قَبيل 'الانبعاثات الليليّة' وهو تعبير لا يغطّي جميع الحيثيّات بالضّرورة، لكنه لا يسمح لخادمة في السادسة عشرة من عمرها بالفهم الكلّيّ للموضوع.

الصّبيان –ليسوا صِبيانًا بعد الآن– لهم انبعاثاتٌ ليليّة لابدّ من الحرص

على إزالتها سريعًا، إضافة إلى حقيقة أنهم يتعاملون مع الأمر بحذر وخفاء شديدَين.

تلك أمورٌ التقطَتْها قبل مجيئها إلى منزل بيتشوود، عندما أُرسلَت مؤقتًا، كجزء من 'تدريباتها' وإعدادها، للخِدمة في بيتٍ كبير احتاجَ إلى خَدَمٍ إضافيين للقيام برعاية ضيوف الصّيف. كانت هناك خمس خادمات، وآه، كم أكثر بعضهن الحديث.

هناك انبعاثات لم تكن تصدر فقط في حالة العُزلة، ولم تكن بشكل مباشر انبعاثات أصلًا (أو حتى ليليّة،) وأغلب الخادمات، مستخدمات قِواهنّ في الاستدلال، يستطعن معرفة الفرق، ولو تمادين أكثر في تسخير قِواهنّ، فسيستخلصن استنتاجات تشرح كيف حدث ذلك 'الانبعاث' بالضبط. لكنّ هذا لا يمكن، في كلّ الأحوال، أن يُذاع أو حتى يُشار إلى معرفته. رغم أنّه من الأمور التي قد تجعل عمل الخادمة مثيرًا. كلّ تلك الانبعاثات وتغيير الملاءات. بيتٌ كبيرٌ في الصّيف، يحتفل فيه خمسةٌ وعشرون ضيفًا، يا إلهي!

حتى إيثل، سيكون لها استدلالاتها وخلاصاتها، رغم أنها ستصمُد مُدّعيةً أنها لم يُراودها شيء من ذاك القبيل قط. ولسوف تستنتج أنّه في الوقت الذي من المفترض أن يكون البيت خلاله شاغرًا، استغلّ السيّد بول الفرصة لإمتاع خطيبته، الآنسة هوبداي، في غرفته. فلا وجود لسبب آخر عدا هذا للقيام بأمرٍ من ذاك القبيل والنجاة بفعلتهما. هذا إذا أسقطنا من الاعتبار كونهما انتظرا كل ذلك الوقت، ولم يحتاجا أن يتحوّلا إلى مشاغبين هكذا خلال الأسبوعين المتبقيّين على زواجهما. ودع عنك أيّ نوعٍ من النساء (وهي التي لم تناقش قط السيّد بول) ستُصنّف تحته الآنسة هوبداي بعدها.

لم يكن من شأن إيثل أن تطلق أحكامًا. إنّ المضيّ في الاستنتاج أكثر، مع بعض المعلومات المهموسة التي تصلها، كانت لتمكّنها من معرفة أنّ الآنسة هوبداي امرأةٌ فريدة من نوعها، وما كان للسيّد بول أن يدعوها إلى منزل آبلي كي يفتضّ زهرتها. على أيّ حال، ستفترض إيثل، بينما تجمع الملاءات في السلّة للغسيل، أن السيّد بول، لو حدث أن لاحظ وجود البقعة، واثق من أن إيثل سوف تُخفيها عن الوجود، مثل جنيّة طيّبة، كما كانت حقًّا.

غير أن الوضع كلّه أسفر عن حدوث أمورٍ مختلفة، كما سيظهر. سيغرق المنزل في أجواء مُغايرة، وستكون له حاجاتٌ مختلفة تمامًا لتلبيتها. وقتها، لن يهتم أحد على الإطلاق، إذا وُجد من يهتم أصلًا، بما إذا كانت إيثل قد قضت ساعاتٍ حميمة جوار أمها أم لا. وعلى أيّ حال، ستكون إيثل قد غيّرت الملاءات قبل ذلك.

لم ترَ من قبل رجلًا يرتدي ثيابه. رغم أن عليها كخادمة أن تتعاطى عن قُرب مع ألبسة الرجال، وخلال الصّيف، في المنزل الكبير ذاك، تعلّمت بسرعة عنها وعن تنوّعها المذهل وكم قد يملك الرّجل منها في خزانته، وعن مختلف تفصيلاتها وتعقيداتها. رغم أنها مرارًا، وفي أماكن غريبة مختلفة (الاسطبلات؛ بيوت المشاتل؛ تحت ظِلال بيت الشجيرات وفي داخله) تعالقت بحميميّة مع ثياب بول شيرينغهام، حتى عندما كانت الثّياب عليه، في حال أنّه بالطبع –أو على افتراض أنّه– يحتكّ بثيابها.

ارتدى القميص أوّلًا، القميص الأبيض الذي جلبه معه من غرفة

الملابس. وكي يرتديه –أو بصورة أدقّ يدخل فيه– رفعه فوق رأسه، مثل أي امرأة تُريد أن تشُقّ طريقها عبر فستانها[5]. لم تكن تظنّ أنه سيرتدي القميص أوّلًا. لكن لكلّ حركة من حركات ارتداء السّادة لثيابهم هناك مزيج من التفضيلات الذاتيّة والترتيب المسبق. ففي 'الأيام الخوالي،' أيام الرّغد والرخاء، ربما كان له خادمٌ يُلبسه ثيابه. تمامًا كما هو عليها أن تُلبس السيّدة نايفن، أو 'تُحرّرها'.

ارتداء الملابس، على أي حال، لمن هُم في مستواه، ليس مجرّد رمي قطَعٍ من الثياب على الجسد، بل هو أكثر من ذلك. كانت عمليّة مُلاءَمةٍ مُتّزنة للقِطَع عليه. رغم أنّه، أخذًا بالظّروف الحاليّة، له الدوافع كلّها كي يرمي قطَعًا من الثياب على جسده في عُجالة. إنّ رجُلًا آخر، في قصّة أخرى، كان ليقول بينما هو منشغلٌ برَفع سَحّابه وتسوية ثنيات ثيابه ' يا إلهي! جيجي! عليّ الانطلاق من فَوري!'

لكن، قميصه أوّلًا. ما أدهشها أشدّ الدهشة. بدا لها أنه فقدَ هيبته لأنه ارتضى هذا الشكلَ له، هيبته التي –في حرصه على تغييب أيّ إشارة على اضطراره للتعجّل– كان يحنو عليها ويرعاها. إنها حيلته، ستأتيها هذه الفكرة لاحقًا، حيلة بول شيرينغهام العظيمة، أن يُظهر هذا الإهمال للاحتفاظ بالهيبة، الإهمال الذي لم يجرّبه من قبل. ولطالما فقد مهابته معها ثم ارتداها مرّة أخرى. لكن أيّ رجل يقف دون ثياب سوى قميص سيبدو مُضحكًا تلقائيًّا. ولو كانت تعيش قصّة أخرى مع رجل آخر، لكانت ضحكت، ضحكتها الخفيضة الخبيثة.

افترضت أن هناك أصولًا مُتّبعة تتمثّل في خيارين: إمّا قميصٌ تُحشَر أطرافه في بنطالٍ ما زال ينتظر أن يُرتدى، أو بنطالٌ تهيّأ للقميص الذي

(5) Women's Shift Dress.

ما زال ينتظر. لكلّ خيارٍ منهما إيجابيّاته. غير أنّه بدا لحظةً مثل مهرّج، بدلًا من أن يكون رجُلًا مُقبلًا على مواجهة العالم (وخطيبته المُستشيطة غضبًا،) بدا مثل صبيٍّ أكبر من عُمره وقد هُيّء للنّوم في سريره.
وكان ذلك –في وقتٍ ما مضى– حقيقيًّا، كما ظنّت. صبيٌّ في بيجامة النوم. كما أخبرها مرّة –ونادرًا ما فتح لها بابًا إلى ماضيه– عن المُربيّة بيكي، التي غادرتهم عندما أُرسلَ للانضمام إلى المدرسة. كانت له مرّة مُربيّة، تُلبسه ثيابه وتُجرّده منها، الأخوة الثلاثة جميعًا حظوا بها.
ويا لغرابة الأمر، مُربيّة، أُمٌّ بديلة. تُقدِّم للوالدين سُلالتهما في السّاعة الخامسة بالضبط، مثل طاهيةٍ تُقدّم الكعك. وأين هي الآن المُربية بيكي؟ ربما في منزل آخر. وربّما عند والدتها.

لم تُطلِق خافِتَ ضحكتها لمرأى قميصه. لكان لطيفًا أن تضحك، ربما، من موقع إطلالتها السريريّة عليه. ربما كان هناك عالم آخر، حياة أخرى يكون فيها هذا كلّه عاديًّا، مجرّد أدوارٍ مُتراكمة وملعوبة مسبقًا فلا تستجلب ردّة فعل. لكن لا شيء آخر عدا عالمها الرّاهن وحياتها. لكانت إذًا زوجةً مُشتاقة في إحدى الغُرَف في لندن، وتُراقبه يرتدي ثيابه ليتحوّل إلى مُحامٍ مهزلة.
مرّ وقتٌ بالكاد تبادلا خلاله الحديث. كانا قبل ذلك يلهثان، ويئنّان ويزحران مثل الحيوانات. يبدو أنهما دخلا في فراغٍ قلّصَ وجودهما حيثُ –وهذا توصيفٌ لم تعرفه في حياتها سوى لاحقًا– وحدها 'لغة الجسد' ما كانا يتبادلانه. جسدها وحسب هو من يتحدث. ليست

راغبةً الآن في تزييف–أو إعدام– ما حدث بوضعه كلّه في كلمات، وسيبقى، كما ستعرف في حياتها اللاحقة أيضًا، لغزًا ثابتًا كلّما كرّرت التجربة.

بدا أنّ أيّ كلامٍ لو تفوّها به في هذه الأثناء سيكون مبتذلًا وسيهدم اللحظة، رغم استرساله في تفاهة ارتداء البنطال والجوارب.

مع ذلك، فإنه يتهرج الآن. القميص الناصع البياض. وكان قميصًا رسميًّا. ويتطلّب ارتداء طوقٍ أيضًا. فما كان مجرّد قميصٍ نظيف ناعم ذي طَوق ويصلح ليوم الأحد، ولنُزهة بالعربة مفتوحة السّقف. بل لقد كان–حتى في ذلك الوقت، بحِسّ الأناقة القديم– 'الأفضل ليوم الأحد'. شاهدته، وهو يُزمّم بمهارة مُنسابة مقابض أكمامه: فضيّاتٌ بيضويّة تلمع في ضوء الشمس. ثمّ يُعالج أمرَ أزرار القميص، والياقة شبه المنشّاة. ثم جلبَ ربطة عنق: داكنة وبرّاقة في الوقت نفسه، لها لونٌ أزرق رماديّ تُزيّنه بُقع بيضاء، وتخيّر لها دبّوسًا مناسبًا: هل كان الدبّوس حقًّا ماسةً صغيرة؟ ذقنه حَليقةٌ سلفًا–كان لها أن تتحسّسها– والآن عطّرها بالكولونيا.

بدا وكأنه يتهيّأ لحفلة زواجه، لكن لم يحن أوانها بعد. إنّه ذاهبٌ وحسب للقاء زوجته المستقبلية وتناول الغداء معها قُربَ نهر التايمز. وفي حال أنّه، وقد بات ذلك أكيدًا الآن، سيتأخّر كثيرًا عليها، كيف سيغدو لظهوره وافرَ الأناقة هكذا أن يُعينه؟

عقَدَ ربطة العنق بحذر، مُظهرًا حرصًا شديدًا في تكوين عُقدَةٍ مُحكمة، وكذلك مُناسَبَة أطوال أطراف الرّبطة، قبل تثبيتها بالدبّوس. ذاك كلّه قبل أن يرتدي بنطاله. لم تضحك، وما كان باستطاعتها ذلك أصلًا. لكن سيبدو لها لاحقًا أن كلّ شيء يتعلّق بهذا المشهد هو من عناصر

المسرح الهزليّ. ما إن يلبس بنطاله حتى يضيع كل شيء. لو أنها قالت له، صرخت فيه 'لا تلبسه!'

لكنه ذهب الآن إلى غرفة الملابس، مُتلكّئًا (هل يحسب أن الوقت توقف عن الجريان؟) أمضى بضعة دقائق صدرت عنه خلالها أصوات خشخشة، ثم عاد وقد ارتدى بنطالًا، وسُترةً، وحذاءً. حتى أنّه تحلّى بمنديلٍ حريريّ أنيقٍ أناقة ربطة العنق ويتناغم معها، يُطلّ من جيب سترته العلويّ.

هل كان ذاك كلّه بسبب أنّه لم يقرّر بعد أيّ بنطالٍ سيرتدي –الأوّل الذي كان قد نزعه وما يزال مرميًّا طريحَ الكُرسي، أم الثاني الذي كان ما يزال معلّقًا في غرفة الملابس؟– لن تعرف أبدًا. وهي لم تسأله، أو لم تملك القُدرة على سؤاله، ليتهكّم حينها أو يشرح لها الأمر 'طال بكَ الوقت وأنت ترتدي بنطالك'.

'أوه، أجل يا جيجي، هذا ما حدث'.

ثمّ ما معنى هذه المُفردة الحمقاء على أيّ حال: 'بنطال'.

وقف هناك أمامها، كاملًا. التقط عُلبة السجائر والقدّاحة. فُتحةٌ صغيرةٌ في السُّترة هي ما كانت تنقصه ربما، ليشُكّ فيها واحدة، فزهور الأوركيد البيضاء ما تزال هناك في البهو. رُبّما كان ذاهبًا إلى حفلة زواجه. لم يكن موعدها اليوم، لكنّه كان يتطلّع إليها على أيّ حال، ولربما كان هذا التهندُم الدّقيق كلّه لأجل ذلك: إنّه راحلٌ –ألم يكن؟– إلى زواجه. ولقد شعرَت بحُرقة، غَيْرَةٍ حقيقيّة من المرأة التي ستستقبل

هذا الهندام المشغول عليه بهدوء، هذا إذا لم تكن الآن، بالفعل، في حالة من الحنق والمهانة.

وهي، مستلقية هنا، كانت قد حظيَت بعُريه المُغلّف، الجديد، غير الممسوس من قبل.

ثمّ طرأت عليها فكرة أنّ هذا كلّه ربما كان، ببساطة، لها. آخر نظرة لها. بثياب 'الرّحيل'. بالطّبع لا. حسنٌ، التّفسيرات كلّها سواسية. ثمّ، ورغمًا عنها –وهذه هي الكلمات الأولى التي فاهت بها بعد بعض الوقت– قالت: «تبدو وسيمًا جدًّا.» حاولت ألّا يبدو قولها كقول خادمةٍ تحمرّ خجلًا وتتأوّه دون تهذيب، كأن تقول 'أووو، ما هذه الوسامة، سيّدي!' ولا أن تقول، في المقابل، ما يحمل استحسانًا على ملَكيّة ما تراه 'لقد أحسنت يا سيّدي، أنت جاهزٌ للخروج الآن'. ولشدّة ما حاولت فإن قَوْلها لم يبدُ حتى كما أرادته: اعترافًا هادئًا ومُقنّعًا.

ولم يجبها بالقول 'وأنتِ كذلك تبدين جميلة'. لم يقل ذلك قط، ولم يستخدم تلك الكلمة إطلاقًا، بل فقط 'صديقة'. ولم تكن متأكدة من أنها لم تلاحظ ظلالًا من عدم الارتياح قد عبرَت وجهه عندما أزجت إليه ذاك المديح.

صحيح أنّ أيّ كلامٍ في هذه الأثناء سيكون بالضرورة مبتذلًا، لكنّ ذاك وحده ما سيُحرّك السّاكن. سيهدم اللحظة، لكنّه ناجع. وقد ألقى، بعد أن فاهت هي، خطابًا كاملًا.

«ليس عليك أن تتعجّلي الخروج. أعتقد أن العصابة لن تعود قبل الرّابعة على أقلّ تقدير. عندما تخرجين، أوصدي الباب الأمامي وضعي المفتاح تحت الصّخرة عند حَذْوة تنظيف الأحذية، إنها ليست صخرة في الحقيقة، بل نصف صخرة على شكل الأناناس في الحقيقة. فقد

أخطأ فريدي وأصابها بينما يهوّم بمضرب الكريكت. لكن هذا ما نفعله دومًا، متى ما خرجنا من البيت وتُركَ شاغرًا. وما أقلّ ما نفعل. وأنا لا أتركه شاغرًا الآن، هل فعلت؟ لكن العصابة ستتوقع المفتاح هناك، لو حدث وأن وصتا قبل إيثل وآيرس. إنّه مفتاح قديم ضخم، ولا يأخذانه معهما عند خروجهما. سأتركه لك على الطاولة في الرّدهة. وهذا كلّ شيء حقًّا. اتركي الأمور على حالها.»

هل كان يقصد الملاءات، وقميصه الأوّل، وبنطاله الذي صرفَ النّظر عنه، وما يزال يتدلّى على الكرسي؟ أم يقصد أمرًا آخر؟ هل يحاول أن يقول لها ألّا تكون خادمة عابثة حمقاء بعد خروجه؟ قال ذلك كلّه بينما كان ينقُر عُقدةَ ربطة عنقه ويُداور أصابعه حول أكمامه.

«وإذا كنتِ جائعة، فهناك فطيرة لحم[6]، أو نصف فطيرة، في المطبخ. يمكنني أن أقول لطاهيتنا أنني ابتلعتها، أعني أكلتها فيما كنت ذاهبًا إلى الغداء. وليس عليّ بالطّبع أن أبرّر شيئًا لأحد، أيّ شيء على الإطلاق.»

وكان هذا آخر ما فاه به، آخر مُلاحظة تردّد صداها حولي. هل كان معنى كلامه يُشير إلى فطيرة اللحم وحدها؟

لاحقًا، لن تلوكَ فطيرة اللحم فحسب، بل كلّ كلمةٍ في خطابه الواقعيّ ذاك، وسيبقى مطبوعًا في ذاكرتها بشكل غريب. وهذا، تحديدًا، ما جعلها تشكّ في أنها ربما ابتدعته، إذ لابدّ وأنه لم يقُل كل تلك الأشياء التي تستطيع تذكُّرها بوضوح، حتى بعد خمسين عامًا. ربما ما قاله، في النهاية، هو هذا 'عليكِ أن ترتدي ثيابك، وأن تتسلّلي خارجةً من هنا'. ولسوف تُطيل التفكير فيها مثل مسوّدة تحتاج إلى تبييض، لكنها لم تصل بعد إلى معناها المقصود.

(6) Veal-and-ham pie.

ثمّ غادر. لا وداع. لا قُبلة باردة. نظرةٌ أخيرةٌ فقط. كأنّه جَفّ منها، كأنّه يتجرّع آخر الكأس. وما الذي منحها إيّاه في المقابل؟ منزلًا كاملًا. سيغادر ويتركه في عُهدتها. وقد كان لها، قَيدَ تصرّفها. تستطيعُ تفقُّدَ أرجائه ونبْشَ ما فيه بدقّة لو أرادت. لها تمامًا. وما كان لخادمةٍ أن تفعل، وقد سُمحَ لها بالمغادرة في أحد الأمومة، بينما هي دون منزلٍ تذهب إليه؟

تناهى إلى سمعها وقْعُ خَطْوه يتعد نازلًا الدّرج، فيضْعُف شيئًا فشيئًا. لكنّه ارتفع مجدّدًا عندما راحت أقدامه تنقُر بلاط البهو فتتردّد عليه. هل كان يلتقطُ شيئًا أو شيئين من هناك قبل أن يُقلع: قُبّعة؟ زهرة للسُّترة! لمَ لا؟ ربما أبقى دبّوسًا آخر في جيب سُترته لهذا الغرض. هل كان يبحث عن المفتاح؟

لم تتحرّك. تجمّدت. وسمعت صوت الباب الأمامي –أو أكثر من باب– يُفتح ثُمّ يغلق. ولم يكن صوت فَتح الباب وغلقه ناعمًا كما لم يكن عنيفًا. ثم تناهت إليها –صعد إليها الصوت عبر النافذة المفتوحة، دون أن يتردّد صداه داخل المنزل نفسه– ضحكته الخفيضة الخبيثة، فجأة. هذا لو كانت خفيضة. بل إنها أعلى من نفخات بوق، نداءٌ غيرُ هيّاب، غريبٌ ومُذهل كصوت طاووس. لن تنسى ذلك أبدًا.

وهناك أيضًا صوتُ انسحاق حذائه بالأرض، إذ يسير قاطعًا السّاحة نحو الاسطبل القديم الذي غدا مرآبًا لعربته. ولسوف يُصادف درّاجتها هناك، وقد أسندتها إلى جدار المرآب بعفويّة، رغم أنّه قال لها الباب

الأماميّ، لكن الباب الأمامي، وبينما كانت تقترب، فُتح لها بأُعجوبة. لم تحرص على إخفاء درّاجتها عن الأنظار. ولهذا، أدركت الآن، لو أن الآنسة هوبداي قرّرت أن تحضر، كما تفعل الخطيبات في ذاك العصر المتمدّن قادمة بعربتها الخاصّة كي تُفاجئه –وبالطّبع كان سيفاجئه مَقدمها– لكانت رأتها: درّاجةٌ نسائيّة دون عارضة. ولكان قد دار هناك، على إثر ذلك، مشهدٌ ما، مشهدٌ صاخبٌ ومحموم، ولجرى اليوم إلى غير ما كان قد جرى عليه.

لكن، ألن يدور هناك مشهدٌ آخر على أيّ حال، في فندق البجعة في بولينغفورد؟

المشاهد كلّها، المشاهد كلّها التي لن يُكتب لها أن تحدث، ما تزال معلّقة في أجنحة الاحتمالات. باتت السّاعة تُشير إلى الواحدة والنصف تقريبًا. سقسقة الطيور تتردّد. وفي مكان ما، في طريقٍ يقع على الجانب الآخر من بولينغفورد، ستكون إيما هوبداي، في سيّارة إيما، قد قطعت شوطًا طويلًا واقتربت من مكان وموعد لقائهما. أو ربما كانت، حتى هي، متأخّرة بعض الشيء. وهذا حقّها المُصان لها كامرأة. ربما كانت تتأخّر كثيرًا على الدوام، وتلك هي طريقته في التعبير عن انزعاجه من عادتها تلك. لو وَقّت كلّ شيء بشكل دقيق، فلربما تزامنا بهدوء في موعد وصولهما.

ربما كان ذاك ببساطة هو التفسير.

لكن، على أيّ حال، إيما هوبداي كانت ستُسَرّ، بينما تقود عربتها، بسُرعة مُضيّ هذا اليوم الربيعيّ الذي يقرّبها من زواجها. إن الشعور الذي تبعثه قيادة سيّارة يتطلّب تجربةً ما أبعدها عن خِبرات خادمة، فلم تقُد سوى الدرّاجة. لكنّها حاولت أن تضع أقدامها مكان أقدام

الآنسة هوبداي –أو على دوّاسات السُّرعة– والتي لم تعرف بعد كيف حرص زوجها المستقبلي على التهندُم والاستعداد لها، أو كيف طال به الوقت حتى ارتدى بنطاله.

وربما أولئك الذين في هينلي قد انتهوا من تناول السلمون المدخّن، ويترقبون الآن، ربما، أن تُقدَّم لهم لحوم البطّ أو الحِملان المتبّلة بالنعناع، ولن تكون أفضل بالطبع مّما تُعدّه الطاهية ميلي. ولابد أنهم يُعاودون تعجّبهم من جمال الطقس، ويتمنّون لو أنّه يُكرّر نفسه يوم حفلة الزواج. تخيّلَتهم في بَهو طعامٍ طويل، على جانبيه نوافذ فرنسيّة متطاولة ومفتوحة لأشعّة الشمس، وتُطلّ على مَرجٍ أخضر ينحدر منتهيًا بضفّة النهر، وموائد مُعدّة تصطفّ في الخارج، وقُبّعاتٍ بيضاء. مثل حفلة زواجٍ حقيقيّة.

تلك المشاهد كلّها. أن تتخيّلها يعني أن تتخيّل ما هو مُحتمل حدوثه، أو أن تتنبّأ بما هو قريبٌ وقوعه. لكن حتى هذا الأخير، هو شكلٌ آخر من أشكال استحضار الغيب واحتمالاته.

تناهى إليها صوت دوران مُحرّك عربته. التي جعلها بعد ذلك تهدرُ مرّة أو مرّتين. رُبّما كانت هذه عادته، وكأنّه في بداية سباق. والآن بالتأكيد عليه أن يسابق الزّمن، كي يخلّص نفسه من ورطة التأخُّر ولو جزئيًّا. لكنها أنصتت إلى العجلات تدور ساحقةً أرض السّاحة على مهلها، دون التفافٍ سريعٍ ولا عُجالة، ثُمّ إلى صوت المُحرّك وقد انتفضَ بعض الشيء بالقوّة والسُّرعة، بينما يعبُر بالعربة جوار أشجار الليمون والمَرْجَين الأخضَرَين، ثمّ راح الصّوت يخفت ويخفت حتى امتزج بأغاريد الطيور وتاه فيها.

لم تتحرّك. لم تذهب إلى النافذة. ثم سمعت صوت العجلات الذي

ازدهر وصَفَا عندما اعتلت الطّريق المُعبّد، وهو الطريق نفسه الذي سلكه اليوم صباحًا، بالعربة الأخرى الكبيرة، مُشرّفًا ومُروّعًا في الوقت نفسه إيثل وآيرس. وأخيرًا، داس مُعجّل السُّرعة.

لم تتحرّك. هفهفت السّتائر قليلًا. فتاةٌ عاريةٌ في غرفته. لم تتحرّك، ولم تعرف كم مضى من الوقت عليها وهي على حالها. هكذا حتى شعرت بسخافة جمودها وقد طغى على شعورٍ لها آخر، حاجتها المُفزعة إلى الثبات.

ثمّ تحرّكت. تهيّأت للنهوض بالتوسّد على الوسادة. ثمّ عثرت قدمها على السجّادة. فنهضت وسارت عليها، عارية، كما فعل هو. الأخوان في أُطُرهما الفضيّة يحدّقان بها. ورأت انعكاسها في المرآة. ثمّ تقدّمت من النافذة. لا شيء لتراه. مقاطعة باركشير. لم يكن هناك أحد ليُلاحظ ظهور وجهها الغريب من النافذة، ونهديها المُضاءين بالشّمس. وامتدّت السّماء في زُرقة تامّة لا يُفسدها شيء.

ثمّ دارت عائدة إلى حُضن الغرفة، تُقاوم حاجةً باتت تعلو في داخلها لالتقاط ثيابها. نظرت إلى الفراش حيث كانا معًا منذ قليل، الأغطية المُطوّحة إلى الوراء، والملاءات المثنيّة، والبُقعة الصّغيرة الصّاخبة.

فكّرَت في إيثل.

كلّ تلك الانبعاثات! إيثل خادمةٌ في بيتٍ للفتيان، فلا يُعقل أن تدّعي جهلًا بها، لكن هذه البُقعة تحديدًا مُختلفة وتبعث على الفضول. كلّ انبعاثات الإخوة الثلاثة، وقد رحل منهم اثنان، لكنّهما ما زالا في الأُطُر الفضيّة، يُحدّقان بفتاة عارية. وإيثل، كما اعتقدت بقوّة، لم تعرف قط ما هو شعور أن تكون سببًا مباشرًا في انبعاثات رجُل، فضلًا عن أن تشعر بها تنقذف في جوفها، أو أن تمتزج بسوائلها الخاصّة، ثم

تنساب منها. إنها خادمة، أجل خادمة. وإيثل لابد وأنّها تُقارب الثلاثين من العمر، ولابد أن والديها مُعمّران. لكنّها على الأقل تنعم بوجودهما، وقد سُمح لها برؤيتهما هذا النّهار.
كلّ الانبعاثات الضائعة. ولوهلةٍ بدت أشعة الشمس وكأنها تملأ الغرفة بمُجرّد فراغٍ مُشعّ. لكن لماذا تشعر الآن أنّها ثكلى ووحيدة في العالم رغم أنها نالت اليوم ما نالت؟ هي، في النهاية، ليست إيثل، ولديها منزلٌ كاملٌ مع ساحته تحت تصرّفها—هذا الأخير هو تعبيرُ السيّد نايفن.

ثمّ سارت إلى الخارج، وعبرَت غرفة الملابس، نحو الحمّام المجاور. وكأنّه معبَدٌ ذكوريٌّ صغير. راحت تعبر بعينيها على أمواس الحلاقة والفراشي وقناني الكولونيا، وتساءلت هل لها أن تلمسها؟ تساءلت هل تلمس وتحرّك المعروضات على الأرفف الزجاجيّة كلّها؟ لقد اغتسلت وتجفّفت على كلّ حال في حوض الحمّام ومستخدمةً فوطة—الفوطة البليلة نفسها التي كان قد استخدمها— ولسوف ترفعها إيثل إليها دون تفكير. كانت ترتدي واقيَ عُنُق الرّحم الذي ساعدها هو في الحصول عليه، ولهذا كان هناك كثيرٌ ممّا سال منها وتقطّر. لم تكن لتحصل على شيءٍ كهذا لولاه. ولقد تمّ الأمر، بكلّ امتعاضه المُعتاد حول صعوبته أو حرَجه، ذات نهارٍ كانت مُجازةً فيه. ركبت قطار السّاعة 1:20 إلى ريدنق، والتقته. بعدها، ذهبا سويًّا إلى السينما.
الله وحده يعلم كيف تدبّر الأمر. لقد فاقها ذكاءً، ربما، في بعض الأوقات. «أعرف طبيبًا يافعًا، يا جيجي...» ولقد استغرقت كثيرًا من

الوقت لتعتاده في جوفها. فهو وسيلتها (وسيلتهما) لتلافي التّبعات.
ولنفترض –ستفكّر في هذا لاحقًا– أنها حملت منه، هل كانت ستعاني من التّبعات –لكانت كلّها تبعاتها، ولتضمّنت طردها الفوريّ من العمل– لأجل ألّا يُلغى زواجه؟ هل كانت لتُفسد حياته كلّها؟
لنفترض أنها، عن قصد، أهملت وضعَ ذاك الشيء، لنقُل خلال الأشهر الثلاثة الماضية.
لنفترض.
«صُنع في هولندا، يا جيجي، من أجل ألّا تذهب بذاري إلى أبعد ممّا يُفترض بها.»
لا تعلم ما الهولنديُّ في الأمر. لكنّ جزءًا من ردائها كخادمة كان واقيَ رأس أبيض تعتمره دومًا، ولهذا فإن هناك أوقاتًا كانت ترتدي خلالها واقيين.
و'بذار'. هذه كلمة أخرى غريبة، أو كانت طريقة توظيفها غريبة، فلم تكُن تشبه في أي حال ذاك الذي يعنيه من وراءها. ذلك الحَبّ الصّغير في التفاح، والحبّات الصّغيرة التي تُشبه الغبار أحيانًا على وجوه الأرغفة. لكنها كانت الكلمة المناسبة والصحيحة، تستطيع أن ترى هذا أيضًا، وكانت مُعجبة بها. وهي أوّل كلمةٍ استخدمها ليُشير إلى ما ينبعث منه، في أوّل مضاجعة لهما. «إنها بذاري يا جيجي.» وبدا لها الآن، أنّه مرّ وقت طويل على ذلك. «إنها بذاري، نستطيع دفنها في التُّربة وسقايتها، ولنرَ ما يخرج منها.» لم تُدرك وقتها أكان مازحًا في قوله أم جادًّا.
والفصل الآن هو الرّبيع. موسم البذار. «نحرُث الحقول وننثر الـ...» الانبعاثات كلّها.
هل كانت أمّها خادمةً حُبلى؟ هل هذه هي القصّة كلها؟ ألم يكن عند

والدتها واقٍ لتضعه؟ كلّ تلك الانبعاثات... كما كانت الطاهية ميلي ستقول.

ثم ذهبت إلى غرفة تبديل الملابس. وشعرت باندفاعٍ لتلمس وتحرّك –وحتى أن تلبس– كلّ ما هو معلّقٌ هناك. إنّها أشياءٌ وحدَهم الخدَم من يَحيرون أمامها. ماذا سأختار هذه المرّة؟ كيف سأبدو اليوم؟ وكيف اختارَ هو، في يومٍ كهذا، سُترته شبه الدّاكنة بلونها الأنيق، الرماديّ المعدنيّ؟

عادت إلى غرفة النوم. وداهمتها مجددًا، بنعومة، أغاريد الطيور. وصوت اندفاع قطارٍ بعيد.

تستطيع أن تلتقط ثيابها لترتديها ثم تغادر فورًا، و –ما هي تلك العبارة التي قرأتها في كتابٍ ما؟– 'تمحو آثارها'. لكنّه قال ما قاله: إن البيت لها. ولسوف تجعله كذلك. ولسوف يكون ارتدادًا، جُبنًا، أن ترتدي ثيابها بعد قوله ذاك.

ثم خرجت وسارت إلى مُنبَسَط الدّرَج، حيثُ الظلّ، قدماها على السجّاد الطُحلبيّ. قُضبانٌ ومُرقّشات من أشعّة الشمس تنتشر من بعض النوافذ العالية أو من كوّةٍ ما، تُظهر أمواج الألوان البُنيّة والحمراء من تحتها، والجزء المتهرّئ من السجّاد أعلى الدّرَج والتماع قُضبانه، وذرّات الغُبار السّابحة في الهواء. ولطالما كان هناك غُبارٌ عالق في الهواء. وهل غيرُ هذا ما يُلزمهن بتنظيف الغبار دائمًا؟

ثم نزلت، وكانت أصابعها تمسّد حاجز الدّرج لمعاينته أكثر منه لحفظ

توازنها، وعند كل انعطافةٍ فيه، تلمع أعمدته. لم تكن إيثل إذًا تجلس جلسةً مترهّلة وكسولةً عندما تؤدّي عملها. وفي الأسفل، بدا البهو أثناء اقترابها منه وكأنه يجفُل. وكأنّ الأشياء راحت تهرع بعيدًا أو تتراجع، فلم تشهد منظرًا كهذا من قبل. امرأة عارية تُقبل عليها نازلةً الدرج! تحسّست أصابع قدميها برْدَ بلاط البهو. هناك، على جانبٍ من الرّدهة، تقف على الأرض ساعة طويلة[7]، وفي الجانب الآخر مرآةٌ توازيها طولًا. وعبر القاعة تمتدّ طاولة تحمل مزهريّة واسعة تقف داخلها غُصينات من الأزهار البيضاء. أوركيدُ والدته الأغلى على قلبها. لم تكن تُشبه أيّ زهور أخرى، إذ إن لها سكونًا، وإصرارًا من نوعٍ ما، فقد بدت أزهارها المتفتّحة وكأنّها فراشات مجمّدة.

هل استلّ منها واحدة قبل مغادرته؟ لكنها بدت حقًّا أغلى من أن تؤخذ إلى الخارج. وماذا يهمّها في الأمر؟ لم تكن تلك طريقته في التعبير عن تقديره لأيّ أحد. كما أنّه أيضًا، بصراحة، لم يكن يراعي الشكليّات ولا يقدّرها. السّاعة الطويلة تُشير إلى الثانية إلا رُبعًا! ثمّ من سيلاحظ اختفاء زهرةٍ واحدةٍ من بين أغصان تحمل منها الكثير؟ فلو أن هناك واحدةٌ مفقودة الآن، لما استطاعت هي نفسها أن تعرف.

ذاك كلّه من وحي خيالها فقط، حبيس رأسها، تخيّلت أنّه تقدّم إلى هنا وقطف إحدى الأوركيدات المتفتّحة. ثم وقف أمام المرآة ليثبّتها إلى سُترته، في شَبَهٍ من الصّورة التي تخيّلَتْها، أن تقطفها هي له 'هاك، قبل أن تذهب' ثمّ تثبّتها إلى طيّة سُترته.

هناك لوحات تُحيط بالبهو كلّه؛ ولوحات عُلّقت فوق الدّرج، ما يجعلها شبيهةً بمثيلاتها المعلّقة في منزل بيتشوود. ولقد كان أمرًا لا تتفهّمه،

(7) Grandfather clock.

هذه الحاجة لمن هُم في مستواهم إلى تزيين الجدران باللوحات، فلم ترَ قط أحدًا منهما، السيّد والسيّدة نايفن، واقفًا أمام لوحة يتأمّلها. كانت أشياء، ربما، تُلاحظ فقط من خلال زوايا العين، أو من أجل إبهار الضيوف. أو ربما فقط من أجل الخادمات كي يتعلّمن الذّوق الحقيقي الرّفيع، بينما يرفعن الغُبار عن الأُطُر ويصقلنَ الزّجاج.

ولقد أمعنَت النظر مرارًا في اللوحات المعلقة في منزل بيتشوود، ولسوف تتذكّرها دائمًا، حتى وهي في التسعين من عمرها، مثل ألبومٍ تصفّحته مرارًا في رأسها، كما يتذكّر النّاس بوضوحٍ مُربب المصوّرات كلّها في كتب طفولتها المبكّرة. ولسوف تتذكّر دومًا لوحات الرّجال المتجهّمة في معاطف سوداء طويلة –واهبي الأموال والمُشرفين– والمعلّقة في بهو مبنى الأيتام، حيث لم تكُن هناك قصصٌ لتُقرأ عليها قبل أن تنام.

هل تستطيع أن تصنع ممّا تراه الآن ألبومًا؟ أو على الأقل تتشرّبه لتحفظ بطريقة ما حضورها المفاجئ المشوّش في المنزل، وعناصرها المتضاعفة؟ آخذةً في الاعتبار أنها لن تكون هنا مرّة أخرى، وآخذةً في الاعتبار أيضًا أنها تستطيع إطالة النظر إلى اللوحات، لكن حتى متى ستُعينها جُرأتها على البقاء؟

وكم سيستغرق من الوقت هو، في خضمّ حياته الجديدة، ليبهت في رأسه ألبوم المكان ويتوارى؟ ليس سريعًا، كما اعتقدت، أو حتى أملت. وكم سيستغرق من الوقت هو، ليبهت في رأسه ألبومٍ لحظاتهما معًا ويتوارى؟ ربما قبل أن تأتي عتمة هذا النّهار.

في مكانٍ من الرّدهة، كما هو الحال في منزل بيتشوود، كانت هناك أنواع المكمّلات المُعتادة كلّها –مشجب المظلّات، مشجب القبّعات– الخاصّة بالقادمين والمُغارين، ومجموعات من المعاطف وبدائلها. هنا (رغم أنّها مهمّة إيثل) تستطيع الوقوف للتدرّب على ذاك الفنّ الأساسيّ، والمقصور على الخدم، أن تكون خفيًّا لا تُرى ولا تُحَسّ، وفي الوقت نفسه في متناول اليد ورهن الإشارة. وهي الآن مختفية.

رأت طاولة ضيّقة ذات سطحٍ جلديّ الملمس، حيث توضع القفّازات وبعض المتعلّقات المشابهة. رأت المفتاح الذي تركه لها يرتاح هناك. بدا حجمه مبالغًا فيه. مفتاحٌ يُشبه خيالنا عن المفاتيح! ينتظر هناك مثل امتحانٍ مُقلق، رغم أنّه لم يكن مفتاحًا لفتح أيّ شيء، بل لإغلاق ما انفتح.

لم ترغب في لمسه بعد.

التفتت وعادت أدراجها إلى البهو، حيث واجهتها خيارات عدّة من الأبواب والممرّات. لم يكن ما ستقرّر خوضه منها أمرًا مهمًّا في الحقيقة. فليس لها أيّ شأنٍ خاص بتلك الغُرَف، عدا غرفة نومه في الأعلى، حيث أنهيا مسبقًا شأنهما الخاص معًا. لكن بدا أن هذه الخيارات العامّة والجذّابة في الوقت نفسه وغياب الخصوصيّة تُبقي على وجودها التطفُّلي الخفيّ العاري وتُخصبه، في منزلٍ كان يخصّها ولا يخصّها في الوقت نفسه.

وذاك ما فعلته. راحت تتنقّل بين الغرف. بدت وكأنّها تدرُس المكان، وتُسرّ له إعجابًا وتقديرًا. وشعرت أنها تطفو فَرحةً فوق حقيقة – حقيقة جامحة مثل زيارتها المفاجئة– أنها هنا دون معرفة أحد بذلك، ولن يخمّنوا ذلك حتى مجرّد تخمين. وكأنّ عُريها لم يؤكّد على خفائها فقط، بل وعلى استثنائها من قيود الواقع.

ستُدرك إيثل بالطبع أن أحدًا تواجد هنا بالطبع. لكنّها ستظنّ أنها كانت الآنسة هوبداي.

دخلت غرفة الرّسم. وكان المرْسَم أشبه ببلدٍ بعيد مُهمل، يحوي مجموعة من الممتلكات الحميمة المهجورة. وكأنّ الحياة نفسها، الحياة –وهذه فكرة لم تأتها في حينها في منزل بيتشوود– هي مَجموعُ تلك الممتلكات المُهملة. لم تستطع أن تدخُل الغرفة إلا بالاحترام المدروس الذي تُوليه الخادمة لأهل البيت عندما تُعلن لهم عن اسم أحدٍ ينتظر على الهاتف أو تجلب لهم الشّاي. غير أنّه لم يكن أحد هناك. كان الأمر أشبه بدخولها إحدى غُرَف الفتيَيْن الرّاحلين في منزل بيتشوود، الغرف الأشبه بالأضرحة –لا حاجة لقرع باب الغرفة لكنك تشعر بوجوب ذلك– ولذلك قرّرت ألّا تذهب إلى الغرف المشابهة لها والتي لابدّ وأنها هناك في الأعلى. هل فكّرت في دخولها حقًّا؟ عاريةً هكذا؟

والمرآة المذهّبة المرفوعة أعلى الموقد، شعرت فجأة بانحنائها عليها، اعتقلتها، أثبتت لها ما هو غير قابل للنقض: حضورها الآثم. انظري! هذه أنتِ، وأنتِ هُنا!

وهل ظنّ هو أيضًا أنّه سوف يُستثنى من قيود الواقع؟ أنّ الساعة الثانية والرّبع يُمكن أن تعود إلى السّاعة الواحدة والنصف؟ حاولت أن تقدّر عدد الدقائق التي إن جاء متأخّرًا قبلها فلسوف يُعذَر، لكن أن يُعذَر ببرود، أو أن يُعذَر بغضب لاهب، يعني أنه لم يُعذَر. ولن يُعذَر، حتى مع الجوّ المتسامح لقُرب موعد الزّواج، ولن يُعذر تحديدًا لهذا.

حاولت مرّة أخرى أن تضع قدميها في مكان إيما هوبداي، وأن تدخُل تحت جلدها. وجدت فوق الموقد بطاقة دعوة، مؤطّرة بشريطٍ ذهبيٍ ثخين، ومقوّسة الزوايا، وباهظة الطّباعة بحروف سوداء مائلة. كانت

بطاقة دعوّة موجّهة إلى السيّد والسيّدة شيرينغهام من السيّد والسيّدة هوبداي لحضور حفلة زواج ابنتهما، إيما كارينغتون هوبداي. هذا ما اقتضته التقاليد الرسميّة بالطبع. وإنّ فخْرهما بها هو ما دعاهما إلى إشهارها هكذا أعلى الموقد.

«كارينغتون؟»

وبينما تعود أدراجها إلى البهو، ذهبت لتقف أمام المرآة الطويلة، وكأنها تُعيد نفسها إلى داخل جلدها الخفيّ غير المحسوس من جديد. لم تجرّب في حياتها مُتعة ان تُحاط بكل تلك المرايا. ولم يسعها أن تملك ما يُمكّنها من رؤية نفسها مجرّدة من الملابس تمامًا. فكل ما عندها في غرفة الخادمات المخصّصة لها هو مرآة مربّعة صغيرة، ربما بحجم إحدى بلاطات البهو.

هذه جين فيرتشايلد، هذه أنا!

بول شيرينغاهم قد رأى هذا الجسد، وعرفه واكتشفه أكثر ممّا فعلت هي نفسها. لقد 'امتلكه'. وهذه كلمة أخرى. امتلك جسدها، وكان جسدها هو كل ما تملك. هل يمكن القول إنها تملّكته يومًا، أو إنها ستمتلكه دومًا؟

وهل حدث له وأن 'امتلك' إيما هوبداي؟ حسنٌ، ربما بعد أسبوعين.

حاولَت أن تتخيّل جسد إيما هوبداي العاري، إلى أيّ مدى يشبهها أو يختلف عنها. لكنها لم تستطع. لم تقدر حتى على تصوّر إيما هوبداي دون ملابس. ما الذي ترتديه الآن، في أحد أيّام آذار الشّبيه بحزيران؟ فستانًا صيفيًّا مُزهرًا[8]؟ وقُبّعة حيكت من القشّ؟ حاولت جاهدة أن ترى إيما هوبداي في المرآة. وكان من الصّعب عليها أن تراه هو، فلابدّ أنّه

(8) Frock.

وقف أمام هذه المرآة قبل ساعة، ليُلقي نظرة شامخة مستطلعة، مع زهرة أوركيد أو من دونها.
هل بمستطاع المرايا أن تحتفظ بما طُبع على أسطحها؟ هل يُمكن أن تنظر إلى مرآة فترى أحدًا آخر؟ هل لك أن تخطو داخل مرآة لتكون شخصًا آخر؟
أعلن رنينُ السّاعة أنها الثانية ظُهرًا.
لم تكن تعرف أنّ بول، بحلول تلك السّاعة، كان قد مات.

التفتت مرّة أخرى، وراحت تفكّر من أيّ الأبواب تدلف هذه المرّة. وبعد أن شرّعتها؛ بابًا تلو آخر، وجدت نفسها في المكتبة. رُبما لم يحدث هذا صدفة، ربما كانت تبحث حقًّا عن المكتبة. للمنازل تقسيم داخليّ متشابه نوعًا ما، والمنازل 'اللّائقة'، حتى المتواضع منها مثل منزل بيتشوود ومنزل آبلي، لها مكتباتها الخاصّة. على أيّ حال، أسعدها أن تجد نفسها حيث هي الآن.
المكتبات أيضًا -المكتبات خاصّةً- من المعتاد التمهيد لدخولها بقرْعٍ لطيفٍ وبحذر. لكن، قياسًا إلى حال المكتبة في منزل بيتشوود، فإن هذه المكتبة أيضًا لا تُزار كثيرًا، ولا يشغلها أحد في أغلب الأوقات. إلّا أنّ المكتبات، وإن كانت لا تضمّ أحدًا، لا تكفّ عن خلق انطباعٍ بالجهامة، بأنّه ينبغي ألّا تكون هنا. غير أنه على الخادمة أن تمسح الغبار، ويا إلهي، يا للكمية التي تستطيع الكتب جمعها من الغبار. إن الدخول إلى مكتبة منزل بيتشوود تشبه محاولة الدخول إلى الغرفة العُلويّة

للصبيّين الرّاحلين. والغرض من المكتبات، كما اعتقدت أحيانًا، لا الإبقاء على الكتب، بل المحافظة على جوٍّ من الفراغ الذي يُلزم عدم الإزعاج، ما يشكّل ملاذًا آمنًا للذّكور.

وإذًا، قليلة هي الأمور التي تبعث على الصّدمة، مثل أن تدخل امرأةٌ المكتبة عارية. بل إن الفكرة المجرّدة وحدها تبعث ذاك الشّعور.

يصطفّ في مكتبة منزل بيتشوود من الكتب ما يكسو جدرانها. وأغلبها (كما تُدرك أيّ خادمة) بالكاد مُسّت مسّا. لكن هناك، في إحدى الزوايا بالقُرب من أريكة مكسوّة بجِلدٍ مُزرّر، تقف حافظةٌ للكُتب دوّارة (كانت تستمتع بدفعها للدوران دون سبب بينما تنظّفها) حُفظت فيها الكتب التي من الواضح أنّها مقروءة. وما يدعو إلى العجب ربما، في منزلٍ أهله ناضجون، أن تجد كتبًا تعود في الزّمن كثيرًا إلى الوراء، إلى فترات الطفولة؛ والصّبا؛ ومطلع الرّجولة؛ كتبًا تخيّلت أنها حلّقت ذهابًا وإيّابًا بين المكتبة والغرف العلويّة الصّامتة تلك. وكانت هناك أيضًا كتبٌ بدت حديثة الشّراء بأملٍ كبيرٍ لقراءتها، لكن لم يشرعوا حتى في ذلك.

رايدر هاغارد؛ جي. أي. هينتي؛ آر. إم. بالانتين؛ روبرت لويس ستيفنسون؛ روديارد كبلينغ... إن لها أسبابًا وجيهة لاحتفاظ ذاكرتها بتلك الأسماء، وحتى ببعض عناوين ما ألّفته: السهم الأسود؛ جزيرة المرجان؛ كنوز الملك سليمان. وستبقى تنظر بخيالها إلى أغلفتها المتّسخة المتهرّئة المغبرّة، وألوان قِطَع القماش التي تبطّن كعوب الكتب، وظهور الكعوب نفسها، المجعّد منها والماحل.

من بين غرف منزل بيتشوود جميعها، رغم كلّ ما تبعثه من صدود، فإنّ غرفة المكتبة هي أكثر ما أحبّت تنظيفه. هي الغرفة التي بدت وكأنّها تُرحّب بهذه اللصّة البريئة.

في أحد الأيام، بعد أن استجمعت طلبها وقدّمته بجُرأةٍ حيِيّة، وربما أرفقته بابتسامة تكلّفتها، أجابها السيّد نايفن، بعد أن استغرقت رأسُه المحنيّة وقتها في التفكير «حسنٌ، أجل، يمكنك ذلك يا جين.»

ربما سبب استغراقه في التفكير هو أنّه يسمح باختراقٍ في تراتبيّة المنزل، أو ربما دلّ ذلك على حَيرته في مسألة عمليّة بحتة: متى سيُسعفها الوقت لقراءة الكتب، بوجود أشغالها كلّها لتأديتها؟ في منامها؟ وربما دلّ على تفاجئه –هذا إن كانت إمكانيّتها لم توضع موضع اختبار من قبل– من أنها تُجيد القراءة أصلًا.

لكنّه، على أيّ حال، كان استغراقًا سلسًا، ولطيفًا.

«بالطّبع يُمكنك ذلك يا جين.»

كانت كلمات سحريّة فاتحة للأبواب. ولكانَ هناك جواب آخر 'من تظنّين نفسك يا جين؟' جوابٌ كان ليُفسد حياتها إلى الأبد.

لقد استحقّ فرحُها إحدى أعلى صيحاتها سعادة. لا أقل.

«لكن عليك أن تُطلعيني مُسبقًا عن الكتاب الذي ترغبين في قراءته. ولابدّ بالطّبع أن تعيديه.»

«بالطّبع سيّدي. شكرًا جزيلًا لك يا سيّدي.»

وهكذا غدت تستعيرُ الكتب من مكتبة منزل بيتشوود مُحاطةً برعايةٍ ما، بمُراقبةٍ حريصة وافتتان. وفي الحقيقة، تحوّل الأمر إلى شأنٍ حسّاس بالنسبة للسيّد نايفن، عندما اكتشفَ أيّ جزءٍ من المكتبة تجده هي مثيرًا. لم تكن ترغب، على أيّ حال، في قراءة كتاب الشهداء لفوكس، أو حيوات المهندسين لسمايل (في خمسة مجلّدات،) من يرغب في قراءة ذلك؟

«جزيرة الكنز يا جين؟ لمَ تريدين أن تقرئي جزيرة الكنز؟ هذه كلّها كتب

صبيان.»

لم يكن ما يصدر منه يصدر عن تساؤل، أو حتى عن استهجان، لكنّها حَيرةٌ شاعت فيه، فلم يستطع تمالك نفسه. كان في إمكانه أن يقول، بعد بعض السُّعال 'ليست هذه الكتب يا جين، إلّا هذه الكتب'.

وبالنسبة للشّق الثاني من حَيرته، حسنٌ، أين هي كتب الفتيات؟

وهي كتبٌ لم تمانعها إطلاقًا. كتب صبيان، يعني كتب مغامرات.

لم تمانع أن تقرأ كتب فتيات، مهما كان ما يعني ذاك. مغامرة. الكلمة نفسها غامضة وتُغريها بها الصفحات: 'مغامرة'.

إن آل نايفن في منزل بيتشوود، أو من هُم في مستواهم عمومًا، رغم امتلاكهم الوقت والأدوات، لم يبدُ أنّهم مغامرون، أو حتى مؤيّدون لفكرة المغامرة. «كرنفالٌ في هينلي.» المكتبات نفسها كانت مثل رفضٍ جافٍّ ووقور للمغامرات. رغم ذلك، هناك في مكتبة منزل بيتشوود تلك الحافظة الدوّارة للكتب، والتي لابدّ وأنها قُرئت، كتابًا كتابًا، مثل جُرعةٍ مسموحٍ بها قبل مطلع النّضج المُملّ، أو المُرعب.

كان بمستطاع السيّد نايفن أن يقول 'ليست حافظة الكتب تلك، رجاءً، يا جين،' لكنّه لم يقُل.

ولاحقًا، بعد زمنٍ طويلٍ من حياتها، سوف تصرّح في المقابلات، مُجيبة على سؤال أبديّ التكرار (ومُضجر): «أوه، كُتُب الصّبيان بالطّبع، كتب المغامرات. إنها الأشياء القيّمة بحقّ. مَن يرغبُ في قراءة كتب الفتيات الرّقيقة تلك على أيّ حال؟»

وربما تلألأت عيناها، وارتفع وجهها المليء بالأخاديد بعض الشيء. وربما تستأنف كلامها حينها، لو أرادت أن تُظهر أنها لم تستغرق في الجفول، بالقول أنّ قراءة تلك الكتب حينها –'كانت الحرب، هل تفهم، الحرب العالميّة الأولى، للتوّ انتهت'– تُشبه العبور فوق الانقسامات التي أحدثتها الحرب، انقسامات قريبة لكنّها ذات تأثير كبير. قراصنةٌ وفرسانٌ يرتدون العتاد، وكنزٌ مدفونٌ وسفُنٌ تُبحر. رغم كلّ شيء، كانت تلك هي الكتب التي قرأتها.

أمّا المكتبة في منزل آبلي، هنا، فجِدُّ مُختلفة. كان هناك الجدار نفسه من الكتب التي بدت غير مقروءة بتاتًا. هناك أيضًا منحوتات متشابهة –وكأنها جُلبت من متجرٍ واحد– لرؤوس رجالٍ ذوي لحىً وحواجب ثخينة، وأوشحة معلّقة على الكتف[9]. وكانت هناك طاولة. وعوضًا عن أريكة الجلد المُزرّر، ثمّة كرسيّان مذرّعان لهما لون القرميد الأحمر. وكانت هناك قضبانٌ لتعليق الجرائد والمجلات، وهي مُنتجات مدنيّة جديدة جعلت المكان لا يبدو وكأنه مُتحف. ومن بين الستائر، تدخل أشعّة الشّمس من نوافذ نصف مكشوفة، بينما السّتائر تنسدل في مستطيلاتٍ مستقيمة حتى تلتقي اللونَ البُنيّ الناعم للسجّاد.

وجدت على الطاولة كومةً من الكتب، ميّزتها، كتب قانون. وكانت هذه هي الإشارة الوحيدة –رغم أنها بدت جِدُّ مُرتّبة– على مقاصده المُدّعاة بينما البيت شاغر وهادئ. في صباح مثل هذا؟ يتدارك الوضع.

(9) Bust.

لقد تخيّلت على أيّ حال، أنّ مذاكرته المحمومة ستتمّ بينما أقدامه مرفوعة على الطاولة، مُتابعًا تدخين السّجائر.

بدا وأنّها تراه أمامها كما تخيّلته، مثل شبح في الغرفة. ما يعني أن في الغرفة الآن شبحين. لكنّ شبحها كان ملموسًا وواضحًا، هناك. رغم أنّه لم يعرف أحد بأمره.

إنّه آذار، لكن دفء اليوم كان طاغيًا إلى درجة أن ذُبابةً راحت تئزّ وتعاود بعناد الاصطدام بالنافذة. وحينئذ رأتها، كتبٌ تشكّل جزءًا مستقلًّا وحدها، شبيهةً إلى حدّ بعيد بالكتب التي رأتها مرارًا في بيتشوود. حتى أنها عرفت بعض العناوين المألوفة، والتي قرأتها في الحقيقة. لذا، لم تكن هنا غريبة أو مجرّد عابرة. لكنها بشكل ما تنتمي إلى هذا المكان.

ولو كان بول شيرينغهام قد وصلته صِلة بأيّ من تلك الكتب، فإنه لم يقُل لها ذلك. بل أعطاها انطباعًا بأن هناك متعلّقات كثيرة في منزل آبلي حان وقت رميها بعيدًا. ففي النهاية، تخلّصوا من خيولهم الرّهيبة. وعندما أخبرته عن أمر قراءتها للكتب (وتمنّت أنها لم تُفصح له عن ذلك) سعل، كما سعل على أشياء أخرى كثيرة، وقال «كلّ تلك التفاهة، يا جيجي؟ تقرئين ذاك كلّه؟» وذكّرها باستطراد أن علاقتهما تنحصر بين جسديهما، علاقة عمليّة هنا والآن، وليست حول الثرثرة عن الكتب.

مُحامٍ؟ شبه مستحيل.

الفرق في مكتبة آبلي هو أن كتب 'الفتيان' ليست معزولة في حافظة كتب، دوّارة أو أي شكلٍ آخر، لكن في جزء صغير مخصوص (رُبما أُفرغَ من أشياء أكثر أهميّة) من المكتبة الأساسيّة الكبيرة، ما يسهّل الوصول إليها.

والفرق أيضًا هو أنها كانت تقف عارية في مكتبة منزل آبلي، وهو أمرٌ لم يحدث أن قامت به في منزل بيتشوود.
استلّت كتابًا من أمامها وفتحته. ثم، لأسبابٍ لم تفسّرها وقتها، ضمّت الكتاب إلى نهديها العاريين، مثل مُرضعة. كان نسخةً من رواية المخطوف. تعرفها مليًّا. فلقد قرأت نُسخة الحافظة الدوّارة في مكتبة بيتشوود. كان الكتاب يضمّ خريطة 'رحلة ديفد بلفور،' وكثيرًا من الكلمات مثل 'بدأت قصّة مغامراتي في...'
ضمّت الكتاب إليها ثمّ بدّلته. لا أحد سيعرف. لا أحد سيعرف عن قصّة ذاك الكتاب نفسه ومغامرته الصّغيرة. ولا أحد سيعرف الحقيقة خلف 'الخريطة' على ملاءة السّرير في الأعلى.

غادرت المكتبة. في البهو حاشيةٌ من السّاعات لها طنينٌ وتكتكة. وهي الأصوات الوحيدة المسموعة في الداخل. وفي الخارج كان العالم مُشرقًا ويُغنّي. أمّا هنا فقد أُصمِتَ كلّ شيء، وعُلّق، وحُبس. التفتت قاطعةً ممرًّا ميّزته بغريزتها أنّه يقود إلى درجٍ يقود بدوره إلى المطبخ نزولًا. هذه الغرفة كانت هادئة ساكنة إلى درجة تصلح معها أن تحوّل إلى مكتبة. شعرت بسكينتها المُثيرة للأعصاب. يُعرف أيّ مطبخ بدفئه الماكث فيه على الدوام، لكن هذا، تحت الأسطح العلويّة المشعّة والمُهمل طوال الصّباح، فيه برودةٌ استثنائية. ربما كانت تلك غلطتها، فهي لا ترتدي أيّ ثياب.
اقشعرّ جلدها ووقفت شعيراته، وكذلك ارتفعت قرقرةٌ وحشيّة من

معدتها.

الفطيرة، جوار سكّينة لتشطيرها، كانت على الطاولة، تحت فوطة شاي مقلّمة بالأبيض والأزرق. إضافة إلى ذلك، كانت موضوعة في صينيّة تحوي شوكة وملعقة، ومنديلًا، وبعض التوابل، وقنّينة من شراب الشّعير وكأسًا، وفتّاحة. الأشياء كلّها معدّة كي يستطيع السيّد بول شيرينغهام أن يرفع الصينيّة من فوره ويذهب بها أينما شاء لو أراد، المكتبة مثلًا، كي لا يقطع عليه أحدٌ أجواء مذاكرته. ذلك إذا لم يرغب في خوض تجربة غير مألوفة له، أن يتناول طعامه وحيدًا في المطبخ. وهذا بالطبع على افتراض أنّ يومه خالٍ من الخطط المسبقة لتزجية وقته وتناول غدائه.

من يرغب حقًّا، في يوم كهذا، أن يحشر أنفه في كتاب؟

كانت نصف شطيرة، بقايا طعام، لكنّها رغم ذلك كثيرة على شخص واحد. فهاجمتها فجأة بجوعٍ مفترسٍ فَظّ. لم يكن من أحد هناك ليراها. لكان قام هو بالأمر نفسه، كما افترضت، لو اختلفت أحداث اليوم، لو أنها جرت كما ادّعى أنها ستجري عليه دارسًا كتب النّقد. لكان نزل إلى المطبخ، واستطعم فجأة لذّةً مُحرّمة في تناول الطعام في المطبخ، ثم تقدّم والتهم الشطيرة هنا تحديدًا عند الطاولة. لربما كفّ عن أن يكون المُترف المُتحفّظ بول شيرينغهام، ودون أن يراه أحد، تنتفخ وجنتاه من كثير الطعام في فمه، مثل صبيّ مدرسة يلتهم طعامه، أو مشرّد يتضوّر جوعًا.

وهي، في حُريّتها النسائيّة هذه –مع قرشَين وستّة بنسات في جيبها– كان يمكن لها أن تذهب إلى إحدى مقاهي الشاي في القُرى، لتتناول شطيرة البيض بالجرجير، والكعك.

لابدّ وأنّه الآن يجلس جلسة الكامل النقيّ من أيّ عيب، معها، في فندق البجعة. لكن كيف كان له أن يُنجز ذلك؟ بالسّحر؟ بصفاقة مُطلقة واستعراضيّة؟ 'حسنٌ، لقد وصلت، ها أنا هنا الآن...' أو بإظهار استعدادٍ لتحمّل التّبعات؟ 'حسنٌ، هل تودّين أن ننهي المسألة وننصرف...'

هل كانت هذه حقًّا هي خطّته البربريّة النّاصعة؟ لسوف يعطيها ذلك أملًا. أن يُنهوا المسالة وينصرفوا، سوف يفتح لها طريقًا بذلك، بأن يُثير مقْتها أوّلًا.

لقد حاولت، على كلّ حال، أن تتخيّل المشهد، حتى وهي تمضغ قضمةً من الفطيرة، مثله تمامًا لو كان جالسًا هنا ويمضغها: تحتشد اللقمة تحت وجنتيه، بينما قِطَعٌ منها تطفر من فمه. أرادت أن تأكل هذه الفّطيرة، والتي لم يأكلها هو، لأجله. وكأنّها كانت هو.

وكم كانت فطيرة رائعة. ثم فتحت قنّينة الجعّة وشربت منها، ولو كان ذلك لأجل أن تدفع الطعام للانزلاق إلى جوفها. وكان طعم الشّراب هو نفسه ما خبرته في المرّات القليلة التي جرّبته فيها، مثل أوراق خريفٍ بُنيّة. ثم هاجمت الفطيرة مرّة أخرى. ثم شعرت فجأة بأنها أكثر المخلوقات تعاسة ويأسًا: لا ثياب تغطّي ظهرها، والسّقف ليس لها، وتتناول فطيرة شخصٍ آخر.

ثمّ ارتعشت. وانتصبت على قدميها. كانت الفطيرة كبيرة على أيّ حال. وتجشّأت بصوت عال. تركت الأشياء على حالها. تركتها، حسب ظنونها، كما كان هو سيتركها عليه، وكما ترك ثيابه المُلقاة في الغرفة. وحتى أنها التفتت عند الباب لترى ما صنعه ذاك المستهتر الطائش. سوف تقوم إيثل بتنظيف كل شيء بالطبع، لاحقًا. إيثل أو آيرس.

وسيبدو غريبًا، كما ستفكّر واحدةٌ منهما، أنّ يكون قد تناول الفطيرة، أو معظمها، بينما هو على وشك تناول الغداء مع الآنسة هوبداي. ولو أنّه ذهب لتناول الغداء مع الآنسة هوبداي، فمن الغريب وجود تلك البُقعة على الملاءة.

وربما تقوم إيثل، لو كانت هي من ستلاحظ الفطيرة والبقعة معًا، بتجميع أجزاء قصّة ما، لا كما ستجمعها هي نفسها، خادمة منزل بيتشوود، بما سيُمليه عليها خيالها فورًا. بل ستتخيّل إيثل أن الآنسة هوبداي، في هذا الصباح الجميل، أخذت على نفسها أن تقطع الطريق كلّه إلى آبلي كي 'تفاجئ' السيّد بول. في حين أن السيّد بول، وقد أرهقته كتب القانون، بات يشعر بالضجر والجوع، فتذكّر فطيرة اللحم. ستوحي بقايا غزوة الفطيرة غير المكتملة، وقنّينة الجعّة التي لم تُفتح بالكامل أيضًا، إلى أن مداهمته المطبخ في منتصف الصباح قد قُطعَت. فبعد وصول الآنسة هوبداي، تداعت الأمور الواحد تلو الآخر بشكلٍ غير متوقّع، ما أدّى إلى وجود البقعة في الملاءة.

وبعد أن يستغلّ السيّد بول والآنسة هوبداي المنزل الشاغر، سيقلع كل واحد منهما بعربته حفاظًا على المظهر العام، وأنهما لم يلتقيا قبل موعدهما وفي غير مكانه. وربما تستدعي إيثل من ذاكرتها أن السيّد بول، أثناء تلك التوصيلة المُريبة إلى المحطة، قال بكلّ جرأة أنه سيلتقي الآنسة هوبداي على الغداء، وأن آيرس قالت إنها أعدّت له فطيرة لحم مسبقًا على أيّ حال، فقط للضرورة. لم يكن عليه بالطبع أن يناقش خططه مع الخدم. لكن أن يُقلّهم هو شخصيًا إلى المحطة هو أمر خاصّ أيضًا.

ولقد كان يومًا خاصًا.

افترضت لاحقًا أن إيثل ربما ركّبَت قصّة كهذه، وأنها ربما رأت، بعد مرور الوقت، أن في قصّتها من الهنات ما يُلغيها. لكن في الأعمّ الأغلب، عندما تواجه إيثل فوضى الغرفة والمطبخ أو أحدها، فإنها لن تمعن التفكير في أيّ منها، أو في شناعة ما تُدلّ عليه، فليس ضمن أعمالها أن تفكّر في أمور كهذه. إن لديها ما يكفي للتفكير فيه، وقد عادت للتو من زيارة أمها.

هل فكّرت إيثل لاحقًا، أو حتى آيرس، من منهما تناول الفطيرة؟ لو كان هو من تناولها، فحسنٌ، هذا يعني أنّها آخر وجبة تناولها في حياته.

صعدت الدرج. كانت هناك كتبٌ أخرى واسعة الانتشار إلى جانب كتب المغامرات الخاصّة بالفتيان، من بينها عنوانٌ يفضّله الناضجون أيضًا. لكنّها ستُقول، خلال مقابلاتها، أنها لم تحُز من الوقت ما يكفي لتزُجيه على روايات التحريّات البوليسيّة، لا وقت لقراءتها، دع عنك أمر كتابتها. فالحياة، نفسها، أحجية كافية.

صعدت من درج المطبخ إلى دفء الدّور الأرضيّ وضيائه. والآن، دون حاجة ملحّة تدفعها إلى العجلة –غدت الساعة تشير إلى الثانية والثلث، والعالم ما يزال في فترة تناول الغداء– رغبت في الرحيل، لقد استكشفت المنزل بشكلٍ كاف.

وعندئذٍ (ولهذا ستعرف دومًا متى سمعت الرّنين بالضبط) رنّ الهاتف –أو أحد الهواتف– وقد كان موضوعًا في تجويفٍ أُعِدّ له في الجدار. جَمُدَت. انتابها شعورٌ مُريبٌ بأنّ سبب رنينه هو تحرّكها بالقُرب منه.

لم تُجبه على أيّ حال، ولسوف تكون حماقة أن تفعل، رُغم أنها تُجيد الإجابة على الهواتف. استمرّ رنينه بعض الوقت حتى همد، بينما هي تقف ساكنة وكأنّها مصدومة، وكأنّها لو تحرّكت فسيلاحظها الهاتف بطريقة ما، وهذه حماقةٌ أيضًا.

لكن، أليس الأحمق من ذاك كله على أيّ حال، هو وقوفها هنا في بهو مجهول دون أن تضع شيئًا عليها؟

صعدت الدرج وعاودت الدخول إلى الغرفة. كانت كما تركتْها، بالطبع كانت، فهي من تركها هكذا. عدا الشّمس التي ما زالت تنسكب في الغرفة، وقد انحدرت قليلًا في السماء. وهناك كانت النافذة المفتوحة، والثياب فوق الكرسي، وبنطاله غير المرغوب فيه وما تزال تتشابك ملابسها الداخلية وملابسه. والغطاء المُزال عن السرير. البُقعة، باتت أكثر جفافًا. وشعرت فيما هي تتحرّك أنّ هناك حواجز ارتفعت بينها وبين الغرفة في غضون غيابها القصير: هل حقًّا هذه هي الغرفة التي...؟ هل هي حقًّا حيثُ...؟

وكان هذا الأخير أثقلُ الأسئلة. هل حدث حقًّا ما حدث؟

وراء النافذة سقسقةُ الطيور تمتدُّ إلى الأبد. وفي السماء الزرقاء لم ترَ، أو لا تتذكّر أنها رأت، ما يشوب لونها. ولآخر مرة، عرضت عليها مرآة المنضدة لمحةً لشكلها، ثلاثيّة الجوانب، وهي عارية. ارتدت ملابسها. انزلقت عليها وكأنها ملابس أُرتُديَت كثيرًا لدورٍ تُمثّلة دومًا، فاعتادَتْها. ثمّ لمست –جسّت فقط، تحسّست، لا لترتّب– بنطاله، ولم تُغلق النافذة المفتوحة (كما كان هو ليفعل بكلّ استهتار، مرّة أخرى) إنّه عملُ إيثل. ومَن في الأحوال كلّها سيجلب السلّم لإغلاقها...؟ ولم تلمس الفراش، ولا حتى لتغْطية البُقعة.

الفَتَيَان، في إطارَيْهما الفضيّين فوق منضدة المرآة، صارا غافلين عنها. هل كان من وَحي أوهامها أنّهما أطلّا بأعينهما عليها؟ غير أنّ أماكنهما وأوضاعهما لم تتغيّر، حسب آخر صورةٍ انطبعت في خيالها. وقفت عند عتبة الباب، وكأنّها تلتقط لهما آخر صورةٍ ذهنيّة.

ثمّ غادرت.

في البهو، توقّفت قليلًا لتأخذ –تقطف– إحدى أزهار الأوركيد من غصينات سيقانها في المزهريّة. ها هي تفعل ذلك عوضًا عنه لو لم يفعل. ثمّ فكّرت، في الوقت نفسه، أنّ هذه الزهرة ستكون أفصح الأدلّة على جُرمهما اليوم، لو ارتدَتْها، لو عادت إلى منزل بيتشوود وزهرة أوركيد عالقة في فستانها. لكنها لم تأخذها لتتزيّن بها. بل دسّتها حيث دسّت نصف الكراون. ولسوف تفسُدُ سريعًا وتتفتّت، وهذا صحيح، لكنّها أيضًا دليلها لنفسها على ما حدث. إنها لنفسها كي تتذكّر دومًا. دون أن يعرف احدٌ عن ذلك أبدًا.

قصص مغامرات، لا تحريّات بوليسيّة. كتب فتيان. هي السّر. وربما قال مُضيفُها أثناء المقابلة، آخذًا ما قالته مأخذ النُكتة فهولا يرغب أن تغرق المقابلة في أجواء الكتب والكتابة البحتة: 'كتب فتيان؟ حسنٌ، ماذا عن الفتيان أنفسهم؟'

'أوه أجل' هذا ما كانت لتقوله، ثم تمدّ له يدها وقد عقفت ذراعها الثمانينيّة ليأخذها منها للتنزّه، وكأنّ طوابير الرّجال كانت تصطفّ طويلًا في انتظارها في زمنٍ قديم. وقد تشيع في الجمهور الغاطس في

الظّلام أمامها ضحكاتٌ مكبوتة كثيرة. أمّا المُضيف، فلن ينتبه وسطَ هذا الهرج إلى أنها، مُدّة جزءٍ من الثّانية، قاربت بين أجفان عينيها لتغييره المفاجئ موضوع الحديث!

فقد تكون الحياة نفسها هي المغامرة. وتلك كانت الرّسالة الخبيئة العميقة (أو ما بين السطور) في طيّات الكتب كلها. هل هناك أيّ طريقة أخرى للحياة؟ فالمغامرة لا تتعلّق، بالضرورة، بالقراصنة والمضائق البحريّة. قد تكون مجرّد حالة ذهنيّة خطيرة. افترض، تخيّل. تخيّل. كيف يقضي الكُتّاب أوقاتهم؟ لقد كانوا أكثر الأرواح ابتعادًا عن المغامرات على وجه الأرض، أليسوا كذلك؟ يجلسون طوال اليوم إلى مكاتبهم.

لكنّها لن تقول هذا الكلام أثناء أيّ مقابلة. بل ستكتفي بأن تغمز بعينها غمزةً سريعة، أثناء زمّها شفتيها السّاخرتين، كي تتجنّب الإفصاح عن السرّ الحميم بين الكُتّاب.

بدأت قصّة مغامراتي في...

وضعت المفتاح تحت حجر الأناناس الصّلد. لم تستوعب كيف استطاع فريدي كسره بمضرب كريكت. لو فعل ذلك بفأسٍ للمعارك، ربما استوعبت. ولم تكن تعرف، من بين فَتَيَيْ الإطارين الفضيّين، أيّهما فريدي. كانت تستطيع أن تسأله، كان يجب عليها أن تفعل، لكنها لم تسأل. 'مَن هو مَن؟ احكِ لي عنهما...' هل كانت مناسِبة تلك اللحظة التي استلقيا فيها جوار بعضهما عاريين؟ لكان ربما صَدّ السؤال ومجّه

بتعبيرٍ على وجهه كمن يستطعمُ فاسِدًا.
والآن، لن يكون لها أن تعرف أبدًا.
هُناك، مُسنَدَة إلى الجدار، كانت درّاجتها، دليلُ الجريمة المُفترضة والّذي لم يُجرّم أحدًا. جعلت الدراجة دون جَهد تسير على مهل بعض الوقت عبرَ السّاحة، قبل أن تبدأ بدفع عجلاتها، فاختلفت أنفاسها عمقًا وطولًا. آلمها بعض الشيء حيث جلست على المقعد. طوت تنّورتها وجمعتها. وكان الهواء دافئًا ومُشعًّا ويندفع سريعًا على جانبي رأسها.
شعور مفاجئ بالحُريّة غمرها. حياتها على وشك البدء، لا الانتهاء، لم تنتهِ بعد. لن يمكنها (أو يُطلب منها) تفسير هذا الانقلاب غير المنطقي والغامر في الوقت نفسه. وكأن اليوم انقلب رأسًا على عقب، وكأن ما كانت قد تركته وراءها لن ينغلق دونها، لن يضيع، لن يبقى دَفينَ منزل.
لقد امتزج بشكلٍ ما –فائضًا بنفسه على العالم– بالهواء الذي كانت تتنفّسه. لن يمكنها أبدًا تفسير ذلك، ولن تشعُر به بأقلّ ممّا شعرت به تلك اللحظة، حتى وهي تكتشف لاحقًا، وستفعل ذلك، ما الذي انطوى عليه اليوم حقًّا فانقلب رأسًا على عقب. هل يمكن للحياة أن تكون قاسية، وفي الوقت نفسه، سخيّة أيضًا؟
ثم انطلقت. لم تقُد الدرّاجة على الطريق –كما أقلع هو وكما جاءت هي– من المنزل إلى البوّابة ثمّ الطّريق. العادة والاحتراز القديمَان دفعاها لتسلُك الدّرب القديمة. اجتازت الاسطبلات، مخترقة شجيرات الورود[10]، وجاوزَت بُقعة زراعة الخضراوات، وظِلال بيت الشجيرات، والهياكل المُهملة الباردة وبيوت المشاتل، ثمّ سلكَت دروبًا تتطاول واختصاراتٍ عبرَ المضائق بين الأجمات، لتُفضي بها الطّريق إلى مُختلطٍ

(10) Rhododendrons.

من الأشجار في المنطقة الخارجيّة، تنتهي بأَيْكَة. كلّ منعطفٍ ومُنعَرَج، وكلّ كوخ خشبيّ، وكلّ مُحتَشَدٍ للنباتات، كان معروفًا لها. لقد التقيا بعضهما فيها وأحسنا استغلالها. فلطالما كرّر بصوته الآمِر المُعتاد: «دربُ الحديقة.»

الطّريق السريّة من منزل بيتشوود إلى منزل آبلي بقيَت مطبوعةً في ذهنها عبر السّنين إلى درجة باتت معها مستعدّة في أيّ وقت أن ترسم خريطة الطريق، تشبه تلك الخريطة في جزيرة الكنز، أو رحلة ديفد بلفور في المرتفعات. ولسوف تُخفي قدرتها هذه، فمن التناقض أن ترسُم خريطة سريّة، هذه خيانة حقًّا.

«دربُ الحديقة يا جيجي.» ومرّةً، بصوتٍ غريبٍ صادقٍ يحملُ بعض الصّدى: «لن أدعكِ تقطعين من الدّرب أطوله.»

أفضت أيكة الأشجار إلى مساحة من الأعشاب الخشنة والعوسج، ثم إلى سِيْجٍ من الشجيرات الشّعثاء تحُدُّ طريقًا آخر يقود إلى خارج أراضي آبلي. يتطلّب عبور الطريق منها أن تحمل الدرّاجة وترفعها، لكنّها اعتادت ذلك. كان لها بالطبع، كما جرت العادة أيضًا، أن تترك الدرّاجة بأمانٍ مدسوسة هناك، في سِيج الشجيرات الشعثاء حذاء الطريق. لكنّها أوامره المقتضبة عزّزَت شجاعتها. الباب الأماميّ.

وخلف السّيج العشبيّ – بدت كثيفة ومنتشرة عند هذه النقطة من النّظَر، وكأنّ شجيرات الزعرور خلال الفاصل من الساعات القليلة بين عبورها من هنا صباحًا والآن، قد فتَحَت كثيرًا من الوريقات الخضراء والأزهار البيضاء– امتدّ منعطف لطريق ضيّقة لا تُستخدم عادة. وما إن تصعد الطّريق بالدّراجة حتى تستطيع الاندفاع بأقصى سرعة إلى أيّ مكان، مُطلقةً عنفوان الحُريّة وعدم الاكتراث، مثل الجوّالين،

تقلّب ساقيها على العجلات في ظَهيرة يوم أحدٍ سماويّة.
ثمّ توقّفت بُرهةً، لم تكن تعرف أيّ طريق تسلك. لعلّ السّاعة الآن قاربت الثالثة. ما زال أمامها من النهار نصفُه، وتملكه. أن تنعطف يسارًا يعني أن تسلك أقصر الطُرُق إلى منزل بيتشوود. ولذا، فإن الخيار السّليم هو الانعطاف يمينًا، لكن إلى أين؟ ستدفع العربة وحسب، قرّرت أنّه سيّان هذا وذاك، فالأمر المهم هو قيادة الدرّاجة، أن تشقّ طريقًا خلال هذا الهواء الدّفيء المُنعِش. ولأن الطّريق الأيمن يأخذها في دربٍ مُنحدرة طويلة لترتفع في النهاية بنعومة (وذلك ظهْرُ أراضي آبلي) فقد بات قرارها، بأن تكون وُجهتها غير حاسمة، قد حُسِم.
في البدء، راحت تدفع الدرّاجة بقوّة، لكنها لاحقًا تركتها على رسلها تسير وتُراكم سرعتها على الدرب المنحدرة. أنصتتْ إلى أزيز العجلات، وشعرت بالهواء يملأ شعرها، وثيابها، وبدا لها أنّه يملأ أيضًا عروقها التي داخل جسدها. غنّت عروقها، وربما هي غنّت أيضًا، عدا أن يملأ الهواء فمها فتسكت. لن تتمكن أبدًا من تَبْيان شعورها الشفّاف بالحرية عندئذ، وإحساسها بأن الاحتمالات كلها تتسارع أمامها. عبر أرجاء الوطن كلّه، الخادمات والطاهيات ومدبّرات المنازل حُرّرْنَ هذا النهار، لكن هل كان أيّ واحد منهم –حتى بول شيرينغهام نفسه– مثلها، يحمل روحًا حُرّة دون قيد؟
هل كانت لتقوم بما قامت به اليوم لو أن لها أُمًّا تذهب إليها؟ هل كانت لتعيش حياتها المستقبليّة نفسها لاحقًا، بينما هي لا تعرف شيئًا عنها الآن؟ وهل كان لوالدتها أن تعرف، بينما تتّخذ قرارها المروّع بتَرْكها، أنها أحاطتها ببركاتها؟
ومثل أُمٍّ لنفسها، لن تنسى أبدًا تلك الفتاة فوق الدرّاجة، رغم أنها لن

تذكُرها لأيّ أحدٍ على الإطلاق، لن تفه حتى بكلمةٍ واحدة عنها.
فتاة؟ كانت في الثانية والعشرين من عمرها. الهواء يعلو تنّورتَها، وواقيًا هولنديًّا يعلو فرجها.

عند نهاية الدّرب المُنحدرة، وبعد المُرتفَع، يوجد تقاطع طُرُق فيه لافتة ذات جهاتٍ أربعة، سوداء على خلفيّة بيضاء. كان يمكنها أن تسلك أيّ طريق وتبقى تبدّل العجلات إلى الأبد. إن لديها كنزها الخاصّ. لقد التهمَت نهشةً من الفطيرة، وكرعت جرعةً من الجُعّة، في ذاك المنزل هناك، خلف الأشجار!
لكنها أطالت الوقوف عند مفترق الطرق. الساعة الثالثة. لقد فرغوا الآن، في هينلي، من تناول الحلويّات، ولربما شرعوا في الحديث عن المناسبة المرتقبة. ولكان السيّد هوبداي قد أرسى قواعد سُلطته المحمودة على الحضور، بينما السيّد نايفن يأمل ألّا يشترك في دفع فاتورة الغداء. في حين أن المستهدفَين بأحاديثهم الزّهريّة، يتجالسان في بولينغفورد، ربما تجاوزا بأعجوبة –من يدري؟– لحظة اصطدامهما المُحرقة. لقد أُخمدت الألعاب الناريّة بالشّامبين. ربما استسلمت إيما هوبداي لهيئة بول شيرينغهام وهو يتودّد إليها 'أيجب علينا أن نناقش الأمر الآن، يا إيمسي؟ وفي يوم كهذا؟ فقط لأنني تأخّرت نصفَ ساعة... حسنٌ حسنٌ، أربعين دقيقة... وما الفرق؟ عشرة دقائق وحسب...'
ثم كفُّه في تلك الأثناء تسعى نحو رُكبتها.
هل كان ذاك كلّه هو حقًّا ما حدث؟ الأحداث كلّها... لنفترض.

وقفَتْ، قدمٌ على قارعة الطريق والأُخرى على إحدى دوّاسَتي العجلات. لم يتناه إلى سمعها، من أيّ جهة، أيّ صوت لعبور السيّارات. لم تكن هناك سوى الأغاريد، وأيضًا –خلال الهواء الدّافئ– تتبدّا نصفَ مسموعةٍ أصواتُ استقامةٍ وإزهارٍ وإفاقة؛ إنّه الرّبيع.

انعطفت يسارًا، وأكملت مِيْلًا أو حواليه من الطّريق، ثم انعطفت يسارًا مرّةً أُخرى. إنّه طريقٌ مواربٌ إلى أراضي بيتشوود. ما زال أمامها من النهار نصفه، لكنّها باتت تعرف الآن كيف تُزجي ما بقيَ من وقتها.

ولكان هذا هو ما فعلَتْه على أيّ حال، والذي استأذنت السيّد نايفن للقيام به، لولا الظروف السّعيدة التي أعاقت حدوث ذلك. أو لكانت انطلقت بدرّاجتها هذه، صُحبةَ شطيرة ميلي، وقرشين وستّة بنسات، إلى بُقعة هادئة دافئة. كي تجلس، كي تستلقي، رفقةَ درّاجتها وكتابها. مؤلّف كتابها الذي اختارته هو جوزيف كونراد. لم تسمع به من قبل، وبالكاد شرعَت في قراءته.

فاتها أن تجلب الكتاب معها إلى هنا، هكذا فكّرَت، كي يكون حاضرًا عندها الآن. لكنّها ستبدو تافهة: الباب الأمامي، ومعها واقيها الهولنديّ، وكتاب لتقرأه! لكنّها كانت ستقول الشيء نفسه –لو لم يرنّ التلفون مُنتصرًا– عن تفاهة جلوسها في الحديقة خلال يوم حريّتها لتقرأ كتابًا.

«هل يمكنني، سيّد نايفن، أن...»

ولقال هو، متخيّلةً المشهدَ السّاحر لو حدَث: «بالطّبع يُمكنك ذلك يا جين.»

حسنٌ، اليوم ستُنهي نهارها، أَحَدَ أمومتها، بما كان له أن يبدأ به.

وكي تفي بموعدها مع الكتاب، أن تلتقي جوزيف كونراد اليوم، انعطفت يسارًا ثم يسارًا مرّة أخرى، وقد قرّرت العودة إلى منزل بيتشوود مبكّرًا

بعض الشيء، لكنها أيضًا لم تُطلق سُرعتها ولم تسلك أقصر الطُّرُق. يمكنها أن تبقى هكذا مستمتعة بأشعة الشّمس الغامرة، وإثارة أن تشعر بأنّك حَيٌّ حتى النخاع، فوق درّاجة تأزّ عجلاتها وتطُنّ. ما زالت تستطيع أن تطبعَ ذكرياتها هذه على صفحة نفسها إلى الأبد.

لكن ما حدث هو أنّها وصلت منزل بيتشوود في وقتٍ ما بعد الرّابعة عصرًا بقليل، لتُفاجَأ بالسيّد والسيّدة نايفن وقد عادا. ها هو السيّد نايفن، تراه بينما تقطع السّاحة بدرّاجتها، واقفًا على الرصيف جوار عربته الهمبر، تمامًا كما رأته هذا الصباح وهي تهمّ بالخروج على درّاجتها، لكنّها راحت تتأكّد أكثر فأكثر كلّما اقتربت منه أنّه في مزاجٍ مختلف الاختلاف كلّه عنه في الصّباح. وقد صاح بها: «جين، هل هذه أنتِ؟ جين؟»

يا له من سؤال غريب. هل بدَت حقًّا مختلفة، أحدًا آخر؟

«جين، هل هذه أنتِ؟ تعودين مبكّرًا هكذا؟ إني أحملُ أخبارًا مُؤلمة.»

حدثَ في يومٍ من الأيام، بعد أن باتت الكتابة هي شُغلها –مهنتها، وهذا هو السّبب وراء 'شُهرتها'– وتأليف القصص والتعامل مع الكلمات بحذَق، أنّها ستُسأل سؤالًا أبديّ التّكرار، ومُضجرًا أيضًا: «ومتى إذًا- وكيف إذًا بدأتِ الكتابة؟» لقد جاوبت عنه ما يكفي من المرّات، ولا تستطيع في الحقيقة أن تجيب عليه بشكل مختلف كلّ مرّة. لكنّ القُرّاء –ما فاجأها، فمهنتها الحَقّة هو اختلاق القصص– لم يقفزوا إلى خُلاصة أنّها في جوابها الموحّد ذاك قد تكون تروي قصّة أيضًا، تستظرف الأمر هكذا، كما هو. بل صدّقوا ما تقوله كلمةً كلمة. لكنّه، في نهاية المطاف،

جوابٌ جيّد، لا يُطعَن في صدقه.

«عندَ الولادة، عند الولادة لا شك» هذه إجابتها عندما طُرح عليها السّؤال نفسه في سبعينيّاتها وثمانينيّاتها، وتسعينيّاتها، دائمًا عند الولادة، لحظة غامضة من الحقيقة، وبدت الآن من أبعد اللحظات عنها وأكثرها غرابة.

ثم ستكشفُ عن سرّها كما فعلت مرّاتٍ لا تُحصى: «عشتُ يتيمة. لم أعرف أبي، ولا أمي، ولا حتى اسمي. هذا لو كان لي اسم. ولطالما بدا لي أن ذاك هو ما يشكّل قاعدةً لتصبح كاتبًا، أديبًا. ألّا تحمل أسماء تتبع اسمك على الإطلاق. أن تُعطى ورقةً نظيفة، أو أن تكون ورقةً نظيفة. لا أحد. كيف يمكنك أن تغدو أحدًا ما إذا لم تكُن مُسبقًا لا أحد؟»

ثم تومض عينها ومضة سريعة هي من خصائص شخصيّتها، فتتشكّل على طرف فمها تجعيدة إضافيّة، فيلاحظها المُذيع ويقول في نفسه، أجل، لقد لمسنا فيها وترًا حسّاسًا. ولطالما عُرفت جين فيرتشايلد بحرصها على تشكيل جُمَلها -كما كان الأوّلون- حرصَ الطيور. لكن النّظرة، رغم كل الومضات، ثابتة. والوجه، رغم كلّ تغضّناته، مستقيم. ولقد بدت وكأنها تحاول ارتداء قناع البراءة الذي يناسب السؤال المعاكس: هل تظنّني كاذبة؟

«لستُ يتيمةً فحسب» كما ستقول لتُكمل الإجابة أحيانًا «بل لقيطة. وهذه كلمةٌ لكم كي تتعلّموها، فلم تعُد شائعة هذه الأيام، أليس كذلك؟ لقيطة. تبدو الكلمة وكأنّها مستلّة من القرن الثامن عشر. أو من حكاية خرافيّة تاريخيّة ما. فقد تُركتُ على عتبة دار الأيتام، ملفوفةً بقماط كما أظن، فأُخِذت. هذا ما قالوه لي. أجل، كانت هناك أماكن في تلك الأيام حيث تحدث فيها مثل تلك الأمور. 1901. كان عالمًا مختلفًا

تمامًا. لكنها ليست بداية الحياة التي قد يتمنّاها أيّ منّا. لكنّها وبأكثر من شكل» تومض عينها الآن مرّة ثانية «الحياةُ الكاملة المشتهاة.»

«كُنيتي، فيرتشايلد (الطفل العادِل)، هي من الكُنى التي تُطلق عادةً على اللقطاء. ما أكثر الفيرتشايلديّين والغودتشايلديّين (الطفل المهذّب) والغودبوديّين (الصبيّ المُطيع) وغيرهم ممّن خرجوا إلى العالم من رحم دور الأيتام –وقد سُمّوا كذلك على نيّة التفاؤل بالبداية الحياتية الجديدة. ولطالما سألني الناس –ولا أدري ما الذي يُرجى من وراء سؤال كهذا– هل أكتب ما أكتب تحت اسمي أنا، اسمي الحقيقي؟ نعم بالطّبع، أفعل ذلك. هذا هو اسمي. جين فيرتشايلد. إنّه يليقُ أيضًا أن يكون اسمَ كاتبة. ولاستطعت أن أدعو نفسي جين اللقيطة أيضًا. في الحقيقة، للاسم الأخير هذا رنّة محبّبة للأُذُن، ألا تظنّون ذلك؟»

«وماذا عن اسمك الأول، جين؟»

«أوه، جين، إنّه اسمٌ قديم للنساء، أليس كذلك؟ أعني الفتيات الصغيرات. جين أوستن، وجين إير، وجين راسل...»

ثم ستُتبع كلامها ذاك، مع ومضة في عينها وقد زمّت شفتيها، بالقول إنها جاءت إلى العالم بموهبة غريزيّة للاختراع، وبقلقٍ عميق بشأن الكلمات وتشكّلاتها.

«هذا ما ورثته بولادتي، لأُقرّب الأمر لكم، واعذروا قصوري.»

لكنها لن تبوح أبدًا عن لحظة تحوّلها إلى كاتبة، أو عن بِذار الكتابة وقد لُقّحَت بها جيّدًا (وتلك كلمةٌ مُثيرة: بذار) في يوم دافئ من آذار، عندما بلغت الثانية والعشرين من عمرها، وقد جالَت منزلًا كاملًا دون أن تسترها قطعة ثياب واحدة –عارية، يمكنك أن تقول ذلك، كما ولدتها أمّها– وشعرت بنفسها، شعرت أنها هي جين فيرتشايلد، كما لم

يسبق لها أن شعرت من قبل، ولن يتكرّر في المستقبل، هكذا مثل شبحٍ زائر. تستطيع القول إنها شعرَت حقًّا بمعنى أن تولَد في هذا العالم –أو توضَع، إذا أردنا الدقّة– على أكثر عتباته بُعدًا.
كيف يُمكن، رغم كلّ شيء، الإفصاح خلال مُقابلة مُذاعة (وبمرحٍ ربما كما حدث في بعض المقابلات الأخرى) عن أمورٍ من قَبيل: تجوّلتُ عاريةً في منزل ليس لي، ولم أدخله من قبل. وكيف واتتني الفُرَصة للقيام بذلك؟ حسنٌ، هناك قصّة كاملة كامنة في الأجوبة، وقد أقسمَت ألّا تبوح بها لأحد. ولم تبُح. ولن تفعل.
غير أنها هنا، انظُر، إنّها امرأة امتهنت رواية الحكايا.

كان أحد الأمومة من عام 1924. وهو شأنٌ مُختلفٌ تمامًا عمّا يسمونه هذه الأيام بتفاهة يومَ الأُمّ. وهي لا تعرف لها أمًّا، هل ترى؟
لقد كبُرَت في دار الأيتام، ثُمّ دُفعت للخدمة. وهذه عبارةٌ أخرى لا تسمعونها كثيرًا هذه الأيام (الخِدمة)، ولسوف تقترح الكاتبة الموهوبة التي في داخلها، أن تُسمّى دار الأيتام بدار 'بداية الحياة' (وما تمّ هذا الاقتراح إلا في 1980 أو 1990.) ولأن الخِدمة تجعلُ من مُراقبتك للعالم وملاحظته دومًا واجبًا وظيفيًّا، فإنّك تلعب دَوْرَ النّاظر إلى الحياة من خارجها. ولأن من يخدمون يخدمون، وأولئك الذين يُخدَمون عاشوا الحياة. لكن في بعض الأحيان، للأمانة، تشعر أن الأمر برُمّته مقلوب. إنّ مَن عاشَ هُم الخَدَم، عاشوها بكَدْحهم وخاضوا صِعابها، أمّا أولئك الذين يُخدَمون فهم من بَدوا غير عارفين ما الذي يفعلون في حيواتهم؟

وفي الحقيقة يحمل بعضهم أرواحًا ضائعة حقًّا...

دُفعَت للخدمة في الرابعة عشرة من عمرها. وبعد ذلك بعامين، خلال 1917، نُقلَت لخدمة منزل بيتشوود في مقاطعة باركشير. لقد 'أُخذَت' مرّة أخرى، يمكنك القول، أخذها السيّد والسيّدة نايفن؛ العائلة التي عانت مؤخّرًا من خسارة أخوَين، والتي لم تعد تحتاج أثناء سنوات الحرب الطاحنة تلك سوى إلى خادمةٍ مبتدئة (كانوا يقصدون خادمة رخيصة الأجر ربما)، إضافة إلى أنّ الطاهية موجودة مسبقًا عندهم.

صدرَ قرارهما عن نوايا لا أحد يعرف أسبابها أكثر منهما –لكنها ليست صعبة، بل يمكن الخلوص إليها ربما– فقد اتفقا على اختيار يتيمة للخدمة، فاكتشفا أنّ هذه البائسة الفقيرة التي اختاراها لا تنقصها الألمعيّة ولا حدّة الذّهن. ثم ظهرَ لهما لاحقًا أنها تُجيد الكتابة، أفضل ممّا تستطيعه معظم الخادمات، تستطيع أن تقرأ كلمة 'نُحاس' محفورة على علبة صفيحيّة، وبإمكانها أن تكتب ما هو أطول من قائمة للتسوّق، وتعرف جمْعَ الأرقام.

«هل لكِ أن تجييني، يا جين، ما الناتج عن ثلاثة وستة زائد سبعة وستة؟»

«إحدى عشر شيلينغًا يا سيّد نايفن.»

كانت نصف متعلّمة.

وحتى أنها خرجت عليهم ذات يوم راغبةً في قراءة الكتب. كتب! وبدلًا من أن يصعّر خدّه اللامعة عليها، حرّكت في داخله نزوعًا كامنًا في المنزل للإحسان وفعل الخير بما هو موجود فيه أصلًا. ولربما نقرت وترَ التسامُح الأبويّ في السيّد نايفن، فقرّر أن هذه الطفلة اليتيمة، هذه الفيرتشايلد، لابد أن يُسمح لها باستعارة الكتب من مكتبته.

وعندما عرف أيّ نوع من الكتب تقرأ، ربما اعترض عليها باقتضابٍ ولُطف، لكن بدا أن ما تُفضّله من الكتب هو ما يستخرج من السيّد نايفن تعاطفه الأبويّ وتساهله. السيّد نايفن نفسه كان يختفي في حُضن المكتبة أحيانًا. وهذا ما كانت تحسَب، فترةً طويلة، أنّ المكتبات بُنيَت له: للرّجال كي يختفوا فيها، ويستعيدوا أهميّتهم رغم أنّهم مختفون. ولقد ظنّت مرّات كثيرة أن السيّد نايفن دخلَ المكتبة ليبكي.

وتسامُحه امتدّ ليطال ما بات يتكرّر دون تفسير 'اختفاءاتها' هي. لا يحمل السيّد والسيّدة نايفن أي امتعاض على عملها بشكل عام –بل على العكس– فكان لها، بين الحين والآخر، أن تختفي بغرابة في غير أوقات راحتها الرسميّة وإجازات أنصاف الأيّام؛ كأنْ يستغرقها الوقتُ إلى الأبد كي تقضي من الخارج قائمة تسوّق بسيطة. أو تلك الأيام التي قالت فيها أن عجلة درّاجتها فرغت من الهواء، أو أن السلسلة خرجت من مكانها مرّة أخرى (بدا وكأن هناك لعنة أصابت الدرّاجة الثانية) وكان لابد لها من طلب المساعدة من راكبي الدرّاجات العابرة. لكن هناك أوقات –وهذه حقيقة، خلال الامتدادات الأهدأ من الوقت داخل المنزل– حيث تختفي فلا يعود بالإمكان العثور عليها أبدًا.

الآن، رغم كل شيء، بالإمكان تفسير تلك الاختفاءات. لقد اختلست لحظةً لتخلو في غرفتها، لا كما قد يُفهم، لأجل أن تنوح على رِفاق يُتمها، بل كي تقرأ كتابًا. سيصعُب عليك أن تسمح لها باستعارة الكتب وألّا تسمح لها ببعض الوقت لقراءتها. والمنزل لم يعُد، لنواجه الأمر، كما كان قبل الحرب، في الأيّام القديمة، عندما كان محكومًا بقبضةٍ قويّة، منزلًا يُدار بنظام صارم. انظُر ماذا فعلت الصّرامة بالعالم!

هل تساءل قط السيّد نايفن، أو هو وحَرَمه، عن حقيقة اختفاءاتها؟ هل خمّنا؟

أوه أجل، ستُجيب، والومضة في عينها، ما أجمل حظّها وقد وُلدت دون أسماء تتبع اسمها، بل ودون اسمٍ أصلًا. ودون تاريخ ولادة دقيق ولا وقت. وهكذا لم تكن وحسب غير مُسمّاة، بل دون عُمر، ولهذا فإن لوجنتيها الثمانينيّتين أن تتورّدا حتى الآن.

الأوّل من أيّار هو يوم الولادة المسجّل لها، عن طريق الحسابات التقريبيّة، وربما لأنّه كان تاريخًا لطيفًا، لُطفَ اسمها نفسه: جين فيرتشايلد. بعض الأمهات، في المقابل، تركْنَ أسماء أطفالهن مدسوسةً في القماط، مع تاريخ الولادة. الاسم الأوّل فقط. وكلّما كان شائعًا كلّما كان أفضل. لم يحدث قط ان دسّت والدة اسمًا غريبًا لطفلها من قَبيل لايتيتيا. ولو فكّرت في الأمر، فالأسماء في النهاية مجرّد أفكار. ألم يكن كل اسمٍ فكرةً ما على كلّ حال؟ لماذا إذًا تُدعى الأشجارُ بالأشجار؟

ولربما أحبّت لو أنّها دُعيَت جين قِماط!

وما المهمّ في أن تُحدّد عيد ميلادك في غَير تاريخه؟ فلو كان التاريخ الفعلي هو الخامس والعشرين من نيسان، فلن تتأكّد من ذلك أبدًا. اليوم الخاطئ يُصبح يومًا صائبًا. وهذه هي أعظم حقائق الحياة، أنّ الخيال والواقع في حالة دائمةٍ من الامتزاج، والتبادل. ولو كنتِ خادمة فلن تحظي برفاهية أن تدوّني تاريخ ميلادك، هذا لو كان يعرفه أحد. ولن تُعْطَي يومَ ميلادكِ إجازة. فَأن تكوني خادمة يشبه بعض الشيء

أن تكوني يتيمة، فأنتِ تعيشين في منزل أسرة أخرى، وليس عندك منزل يخصّك لتذهبي إليه.

ما عدا في أحد الأمومة، حيث تُعطى النهارَ إجازة، كي تذهب إلى منزل أهلها. وهذا ما سيضعها دومًا في التّيه. ما تفعل؟ ماذا تفعل بنفسها في أحد الأمومة؟ أن تبحث عن أمها هو أقلّ الاحتمالات ورودًا.

وما الذي كانت لتفعله حقًّا، في حياتها، لو لم تكن خادمة؟ لطالما ظنّت –ووجهها المغضّن سيتورّد مرّة ثانية– أنّ العمل كخادمة هو ورطة بشريّة شائعة الحدوث. أن تكون في التّيه، ألّا تعرف ما أنت فاعل بنفسك.

«سنواتي كخادمة...» هذا ما ستدعوها به، «سنوات خدمتي» دون أن تُتْبع ذلك بالقول «لم تطل فيها عذريّتي على أيّ حال.» «سنواتي في الخدمة.» يصعب الآن تصوّر زمنٍ كان نصف العالم فيه 'في الخدمة'. وُلدت عام 1901 –على الأقل عام ولادتها صحيح– وسوف تكبُر لتُصبح خادمة، كما كان ليتوقّع أيّ أحد في ذاك الوقت. لكن أن تغدو كاتبة، لم يكن لأحد أن يتوقّع هذا أيًّا كان، ولا حتى اللجنة اللطيفة المسؤولة في دار الأيتام، والتي احتوتها وولدتها مرّة ثانية، في الأوّل من أيّار وسمّتها جين فيرتشايلد. لم تكن حتى أمّها لتتوقّع ذلك، أقلّ الاحتمالات ورودًا.

عندما تُسأل أثناء المقابلات أن تُطنب في تصوير أجواء الحرب في تلك السنوات (المعنيّة، بالطبع، هي الحرب العالميّة الأولى) ستقول إنّ تلك السنوات بعيدة جدًّا عنها الآن وقد باتت أشبه بعالمٍ آخر، ومحاولة

تذكّر شيءٍ منها يُشبه إلى حدٍّ ما تأليفَ رواية. هل كانت حقًّا حيّة وقتها؟ لكنها لو كانت صادقة لأضافت إلى ذلك القول إنها كانت واعية بالحرب، بالطّبع وعتها –تلك الأحزان والمآسي المتراكمة كلّها. كيف يمكن لأحد أن يدّعي جهلًا بها؟ كانت تُزيل الغُبار كلّ أسبوع عن غُرفتين اثنتين حيث هي مطالبة بأن يبقى كل شيء «على حاله كما كان». تدخل هناك، تأخذ نفسًا قصيرًا ربما، ثم تشرع في العمل.

لكنّها لم تعرف الصبيّيْن، أصحاب الغرف، فما تتصوّره عند ذكر أحدهما هو غرفته، فلكلّ واحدٍ منهما غرفة كبيرة مجهّزة بأثاث كامل. ولو كنتَ وُلدتَ بفَقْدٍ فادحٍ شامل –كما هو حالها، أليس كذلك؟– فكيف لك أن تُشارك ما مررتَ به كلّه؟ أم هل بقيَ فيك ما تشاركه أساسًا؟ الحرب ليست خطيئتها، أليس كذلك؟ وأيضًا أجل، تستطيع القول إنها كانت محظوظة، فلا أخَ لها ولا أب، دع عنك زوجًا في تلك السنّ لتحمل همّه. وأجل مرّة أخرى، يمكنك القول إنها محظوظة أيضا لأنها نشأت في دارٍ للأيتام محترمة، فلم تكن الدور جميعها فاسدة وتُسيء معاملة أيتامها. أمّا والدتها، أيًّا كانت، فربما فَطِنَت لهذا الأمر واختارت تلك الدّار عن قصد.

لقد تلقّت تعليمًا بدائيًّا لم يتلقّه كثيرٌ ممّن عاشوا مع والديهم، ولا مَن حُملوا وأُلحقوا بجنود الخنادق. لقد وُضعت في الخدمة في سنتها الرّابعة عشرة، رغم أنها تحمل مزايا تتقدّم بها نسبيًّا على أمثالها من الخَدَم: القدرة على القراءة، والكتابة –وحُريّة من كلّ القيود العائلية– وربما حماسةً غير عاديّة لاكتناه الحياة.

ومن لا يرغب في أن يكون جين فيرتشايلد، المولودة في الأوّل من أيّار؟ أوه، أجل –سيتورّد وجهها مجدّدًا– كانت محظوظة حقًّا، فقد

وُلدَت في عَوَز.

«هل أنتِ زهرة أوركيد يا جين؟» هذا ما قالته لها الطاهية ميلي بينما تتأمّل وجهها أوّل مرّة. حدث ذلك بعد وقتٍ قصيرٍ على وصولها المنزل. وكأنّ ميلي تريد بقولها ذلك أن تُحدّد أيّ عيّنة من الناس سوف تتعامل معها.

«لأن والدتي زهرة أوركيد أيضًا...»

هل قالت الطّاهية ذلك حقًّا؟ ولو فعلَت، فهل كانت قد استخدمت تلك الكلمة عن قصدٍ ومعرفة؟ معرفة بأنها استخدمت الكلمة الخطأ، لا الصّواب؟ تحمل عينا الطاهية ميلي النّظرة الأطهر والأبرأ والأخلى من التصنّع. وماذا يهُمّ لو كانت حقًّا قد استخدمت الكلمة الخطأ، فيما لو كانت كلمةً أفضل؟ وسيكون من المُحرج هذا التّنبيه إلى أنّها أخطأت، هذا الإعلان عن فقْر ميلي اللغويّ وضحالة حصيلتها التعليمية، بينما هي (جين) تؤكّد على أفضليّتها وإنجازها. هذا لو كانت قد أخطأت فعلًا. ولو كنت يتيمًا لسَهُلَ عليك أن تتحوّل إلى زهرة أوركيد، كما تحوّلت سندريلا إلى أميرة.

هل قالت ذلك حقًّا؟ أم أنها أخطأت السّمع؟ أم أنها اصطنعت الحوار القصير هذا بينها وبين الطاهية ميلي. حتى في ذلك الحين؟ بالطبع لا. تلك هي حقيقة الحياة الكُبرى. ولهذا سيمكنها يومًا ما أن تختلق شخصيّة كاملة –ثانويّة لكنها ملوّنة، في روايتها أخبرني مرّة أخرى (ولقد فكّرت في الواقع أن تدعوها ميلي الطاهية)– شخصيّة منذورة

لاستخدام كلماتٍ يُساء فهمها دومًا. التي تقول إنها 'موهومة' مثلًا عندما تعني أنها 'مهمومة'. وفي الحقيقة، فإن الطاهية ميلي في الحياة الواقعيّة باتت خلال 'سنوات الخادمة' وفي منزل بيتشوود، وخصوصًا في أحد الأمومة ذاك، مثل طاهية خرجت من كتاب قصص؛ وجناتٌ منتفخة سمينة ومُحمرّة أيضًا، وساعدَين ثخينين خُلِقا لخَلط الطعام في قِدر الطبخ.

لكن ما يهمّها أكثر –وبدا واضحًا وضوحًا مستغرَبًا– هو أن الطاهية ميلي، والتي تكبرها بثلاث سنوات وحسب، قرّرت هكذا بعماء أن تصبح لها –لجين فيرتشايلد– أمًّا –أمًّا بديلة– خلال فترة الخدمة. وهذا ما دفع بكلّ ذلك الصّدق والأمانة أن يفيضا من ميلي على الخادمة الجديدة المضطربة، فلم تستطع سوى أن تقبَل به بعماء أيضًا. ولن تُنكره، حتى حين أثبتت أنها أفضل منها في مفاصلة الأسعار في السّوق، لقد فاقتها إلى درجة بدت معها ميلي، والتي لم تُرزق من الذّكاء حتى أونصة واحدة، وكأنّها هي الطفلة بينهما.

غير أنها لن تبرح تفكّر، هل كانت تعني حقًّا أن تقول 'زهرة أوركيد'؟ وكم كانت (ميلي) تعرف من الحقيقة كاملة، أو حتى القَدْر الصّحيح الذي خمّنته، عنها وعن بول شيرينغهام؟

سوف تُسمّي الشّخصية، في النهاية، مولي الطاهية. وسنوات تبنّيها –كما فعلت بها ميلي– هي سبع سنوات، فخلال ستة أشهر بعد أحد الأمومة ذاك، راحت الطاهية ميلي، والتي لها شذوذها الخاصّ في استخدام الكلمات، تهرف وقد خفّ رأسها، فأُخذَت بعيدًا إلى مكان ما (لم تعرف قط أين، هذا إذا لم يكن منزل أمها الفقير) حيث النساء من أمثالها يؤخذن إليه، ولا يعُدن.

ولذا فقد يُتّمَت، تستطيع قول ذلك، مرّة ثانية.
وماذا لو كان الأيتام يُدعون حقًّا بأزهار الأوركيد؟ وماذا لو دُعيت السّماء بالأرض؟ أو الشجرة بالنرجس؟ هل سيغيّر ذلك من طبيعة الأشياء وحقيقتها، أو كَوْنها لُغزًا مُحيّرًا؟
وماذا لو أنها لم تبقَ مستلقية على الفراش، بل رافقته نزولًا إلى الطابق السفلي، بينما ما تزال عارية، وقدماها الباردتان تسيران على بلاط البهو المقلّم البارد، لتأخذ زهرة أوركيد من المزهريّة وتثبّتها إلى سترته؟
'هذا لأجلي، لأننا لن نلتقي ثانية'.
مثل مشهدٍ قُرِأ قديمًا من قصّةٍ قُرِأت قديمًا أيضًا.

سوف تصبح كاتبة، وبسبب ذلك، أو بسبب ما دفعها للكتابة، فإنها ستبيتُ في حالة قلق دائمة من الكلمات وسيولة معانيها. الكلمة لم تكن شيئًا، لم تكن. والشيء لم يكن كلمة. لكن بشكلٍ ما بات الاثنان لا ينفصلان. هل كان كل شيء اختلاقًا كبيرًا؟ الكلمات مثل جلدٍ خَفِيّ، يُحيط بالعالم ويعطيه واقعه وهيئته. لكن تستطيع القول أيضًا إن الأشياء لن تكفّ عن كونها هناك، موجودة، دون كلمات. في أفضل الأحوال، قد تُشير الأشياءُ إلى الكلمات التي تدُلّ عليها، لكن الكلمات قد تُشير إلى كل شيء.
غير أنّها لن تبوح بذاك كلّه خلال أيّ مقابلة.
سوف تناقشه أحيانًا –حتى وهي في الفراش– مع زوجها دونالد كامبيون. تدعوه بالمُحلّل العظيم. وسيدعوها في المقابل بالمُشَرِّحة العظيمة.

والآن، ها هي ذي كلمة مناسبة للدخول في الموضوع، ولسوف تُخرج لسانها المتهكّم عليه.

«وما الأمور الأخرى التي تعتقدين وجوب توفّرها كي يُصبح أحدٌ ما كاتبًا؟»

«حسنٌ، يجب أن يعرف أن الكلمات هي مجرّد كلمات، قِطَعٌ من الهواء...»

تجاعيد أقدام الغراب حول عينيها تراقصت بفرح.

«أوه، قصص المغامرات، بالطبع، قصص الفتيان. رغم حقيقة أن الحرب ما زالت دائرة وقتها، فإنّ تلك المغامرات باتت مجرّد جنون مستحيل. سخافة محضة.»

«وماذا عن الفتيان أنفسهم؟»

«هل تعني مغامراتي مع الفتيان؟»

لسوف تُصبح كاتبة. ولسوف تعيش حتى تبلغ الثامنة والتسعين من عمرها. لسوف تعيش لتشهد حربين عالميّتين وتنصيب أربعة ملوك على العرش، ثمّ ملكة. وقريبًا ملكة أُخرى، فلابدّ أنّها وُلدَت في عهد الملكة فيكتوريا. 'وُلدَت ثمّ نُسيَت'.

كانت في العاشرة من عمرها في دار الأيتام عندما اصطدمت سفينة

ضخمة بجبلٍ جليديّ، ما جلب إلى الدار مزيدًا من الأيتام. وكانت في الثانية عشرة من عمرها عندما رمت امرأةٌ بنفسها تحت حوافر حصان الملك. وما كادت تدخل الخامسة عشرة من عمرها حتى وُضعت في الخدمة وعملت بعضَ الوقت أثناء الصّيف، في منزل كبير –قصر لم ترَ له مثيلًا قط– وتعرّفت على كل ما يتعلّق بالانبعاثات الليليّة.

سوف تعيش لتكون قديمةً قِدَمَ القَرْن، ولتعرف أنها أدركت ورأت – وكتبت– ما فيه الكفاية. ولطالما قالت مبتهجة إنّها لم تكن لتمانع لو أنّ عمرها لم يتجاوز عام 2000. من المُحيّر كيف أنها نجحت في مدّ حياتها إلى هنا. إنّ لتواريخ سنوات حياتها رقمًا ثابتًا تبدأ به، هو (19)، والتاسعة عشرة هو عُمرٌ من الجيّد أن تعيشه. ولسوف يتورّد وجهها. لا تقصد أن ما تراه وتدركه خلال سبعين أو ثمانين أو تسعين سنة، هو حقًّا كثير جدًّا. 'سنواتها كخادمة' و'سنواتها الأوكسفورديّة' و'سنواتها اللندنيّة' و'سنواتها الدونالديّة'. لقد عِشتِ في معتزلك الخاص، أليس كذلك؟ تجلسين تلك السّنوات كلّها إلى طاولة! حتى في سنوات شُهرتها، كما يُقال، حين دارت العالم، وذهبت إلى أماكن لم تكن تحلم أن تزورها، ولقد مضت كلها أمام عينيها سريعًا فلم يبقَ منها سوى الغشاوة. ثمّ يهلّلون باسمها: 'جين فيرتشايلد تبلغ السّبعين' و'جين فيرتشايلد تبلغ الخامسة والسّبعين' ثمّ 'جين فيرتشايلد تبلغ الثمانين'. بحقّ السّماء! ثمّ يسدّدون إليها الأسئلة القديمة نفسها.

لكن لو احتسبتَ ما رأته بعَيْن خيالها، فحسنٌ إذًا... احتسب الأماكن كلّها. والمشاهد كلّها. في عَين الخيال هو عنوان كتابها الأكثر شهرة. وهل تستطيع الفصل بين الأمور التي تراها بعين خيالها وتلك الحقيقيّة الخاصّة بحياتها؟ بالطبع تستطيع وبجدارة، فلم تكن من هواة

الكتابات الفانتازيّة. ولا تستطيع ذلك وبجدارة أيضًا. وهذا هو كلّ ما يعنيه أن تكون كاتبًا، أليس كذلك؟ أن تُمجّد الحياة بكلّ ما تحمله. إن الغرض الأسمى من الحياة هو تمجيدها.

'سنواتها الأوكسفورديّة'! هي خَير مثال. أجل، لقد ذهبَت إلى أوكسفورد. تستطيع قول ذلك لكن بطريقة مُغايرة عمّا يقوله الآخرون. وأجل، ستُحب أن تصرّح بكلّ حريّة وانطلاق في المقابلات «أوه أجل، كنتُ في أوكسفورد...» و«عندما كنتُ في أوكسفورد...»

أجل، لقد ذهبت إلى أوكسفورد في شهر أكتوبر من عام 1924، للعمل كمساعِدة في متجر يبيع الكتب، مكتبة باكستون الواقعة على شارع كاتشبول. والكتب، كما أيقنت حينها، باتت من الضروريّات، الصّخور الممسكة بحياتها.

هذا هو عملها الأوّل بعد أن كانت خادمة، هذه هي خطوتها الأوسع في حياتها من أجل نفسها. ليست بتلك الخطوة الجبّارة، كما قد تقول، أن تنتقل الخادمة للعمل كفتاة متْجَر، لكنّها خطوة تطلّبت روحَ مبادرةٍ وشجَاعة، وحتى مهارة كتابية، كي تُجيب على الإعلان. وتطلّبت أيضًا تعاوُن السيّد نايفن كي يكتب لها تزكية. ربما كتب أنها استفادت من مكتبته الخاصّة أكثر منه هو نفسه.

رغم كلّ شيء، حصلت على الوظيفة. لابد أن السيّد نايفن كان مدركًا للخطوة الواسعة التي تتخذها في حياتها حينها، وأنها مصمّمة على خوضها، لأنه حين همّت بمغادرة المنزل، أعطاها عشرة باوندات (عشرة!) تُعينها على الاستقرار في أوكسفورد. كان لديها على أيّ حال ما جمعته من مكافآت خدمتها طول تلك السنوات (فلا عائلة لها لتجتزئ منها شيئًا لهم.) هذا دون ذكر أنصاف الكراونات والقروش التي يقدّمها

لها السيّد نايفن في مناسبات متفرّقة.
تعلّم السيّد نايفن الاقتصاد، لكنّه لا يني يحمل عادات السّخاء وآثارها. كانت ميلي قد رحلت، بحلول ذلك الوقت، وباتت هناك طاهية جديدة تُدعى وينيفريد، ولسوف تكون هناك قريبًا خادمة جديدة أيضًا. ولن تعرف جين فيرتشايلد، بعد ذلك الوقت، ما الذي حلّ بمنزلَي بيتشوود وآبلي. لن تعود إليهما أبدًا. كانا بمثابة الخُرافة في حياتها. تأخذ بعض الأشياء، وبعض الأماكن، وجودَها الحقّ في خيال الذّاكرة فقط. وحتى عندما حصلت على عربة –عندئذ بخاصّة– لم تعُد إلى هناك قط، ولو مجرّد عبور، أو وقوف قصير للنّظر والتفكّر.
ذهبت إلى أوكسفورد للعمل لصالح السيّد باكستون. كانت مجرّد مساعدة في متجر كتب، لكنّها متمكّنة من عملها، تتعرّف على الكتب وتعتادها بسُرعة مُطّردة، كما أنها –وربما هذا هو الأكثر أهمية– جيّدة جدًّا في التعامل مع الزبائن، والذين تتدرّج طبقاتهم من مجرّد أولادٍ في الحارة حتى صفوة الجامعة، بينهم أساتذة أيضًا. ولم يطُل الوقت بالسيّد باكستون حتى اتّضح له أنه استعان بمُساعدة نادرة، فلابدّ أن يستبقيها. كما أنه بات واضحًا له أنّه كلّما ازدادت معرفتها بالكتب، ازدادت معرفتها بالزبائن.
الحقيقة هي أنّها راحت تتّخذ رفقاء، وتخرج برفقتهم، وتنام مع بعضهم أحيانًا، ولا غرابة في القول إنّها لطالما تمنّت ذلك، وكأنّها طالما رأته من بعيد مشهدًا غبشًا. فإذا لم يكن باستطاعتها 'الالتحاق بأوكسفورد' فإنها على صِلة حميمة ببعض مَن التحقوا بها. ويمكن القول إنها دخلت 'الدوائر' الجامعيّة وتنقّلت بينها بحُريّة ونجاح أكثر من عديدٍ من الطلّاب المُخلصين للدراسة، التعساء، من الملتحقين

بالجامعة فعلًا. يمكنها أن تمرّر نفسها بينهم بكلّ ثقة على أنها إحدى تلك الكائنات المُخيفة: طالبة في سنتها الأولى.

«وفيمَ تتخصّصين؟»

«تخصّص؟ أوه لا، أنا مجرّد بائعة في متجر.»

ولقد كان رائعًا أن ترى كيف تُضيء الدّهشة أعينهم.

ولربما تجرّأت لاحقًا على القول 'أنا بائعة في متجر، وأكتُبُ أيضا'.

في أحد الأيام، في المكتب الخلفيّ الصّغير، قال لها السيّد باكستون، هذا المُراقب اللصيق لها ورجُل العائلة المُلتزم: «إنني عازمٌ على جلْب آلة كاتبة جديدة، يا جين، فالتي لدينا الآن انتهت أيّامها.» رأت في عينيه نظرةً رزينةً وكأنّه كان يتحدث عن نفسه. إن الآلة الطابعة القديمة تفي بغرضها على أكمل وجه.

«هل ترغبين فيها؟» سألها.

عندئذ، يمكنك القول، أصبحت كاتبة حقًّا، للمرّة الثالثة، إضافة إلى المرّة الأولى عند ولادتها والمرّة الثانية في نهار يومٍ مُشمس من آذار، عندما كانت خادمة.

أيّامها الأوكسفورديّة! سنواتها الأوكسفورديّة! أوه، يا لها من أيّام عظيمة. لقد وجدت أوكسفورد تُبلي حسنًا. كانت أيّامًا تعليميّة. وإن تحرّينا الصّدق، فإنها كانت في بعض الأحيان تلعب دور المُعلِّم أمام أنظف العقول في البلد. وكم تحوي أوكسفورد منهم؟ أوه، لا تستطيع أن تتذكّر بوضوح الآن. وبالطبع، حدث في أوكسفورد أن التقت

بزوجها، دونالد كامبيون. لكنّها قصّة أخرى تمامًا. كم هو مُضحك أن تستطيع القول حتى عن الحياة نفسها إنها قصّة أخرى تمامًا!

«لم يكُن زواجًا سعيدًا بمعنى الكلمة، أليس كذلك؟ أنت ودونالد كامبيون؟»

«ما الذي دعاك لقول ذلك؟»

«حسنٌ، عقلان مختلفان، ومهنتان مختلفتان. لقد كان هو فيلسوفًا شابًّا وألمعيًّا، أليس كذلك؟»

لم تقُل 'كان هناك انجذابٌ جسديٌّ أيضًا'. رغم أنها، في عمرها الثمانيني، كانت تستطيع النجاة من تبعات قولٍ كهذا. لو كان للحقيقة أن تُعرَف –لكن حتى دونالد نفسه لا يعرفها– فهي أن دونالد يستدعي إلى ذاكرتها فورًا بول شيرينغهام. وبالتأكيد لن تكشف عن ذلك خلال مقابلة.

'هل تعني أنّه ليس لدينا متّسعٌ لكتبنا معًا؟' لكنها لم تقُل ذلك أيضًا. تستطيع أن تصمت، فبراعتها في التزام الصّمت توازي براعتها في السّخرية. يا له من قناعٍ جيّد، أن تحمل وجهًا ثمانينيًّا مزمومًا مثل خيوط رأس المسحة.

ثمّ تخبّط المُحاوِر فقال «وكان قصيرًا وتراجيديًّا أيضًا.»

'دونالد أم الزواج؟' لكنّها لم تقُل هذا قط.

«أجل، كان فاجعًا» ستقول ذلك بصوتٍ يُشبه قَدْحَ القدّاحة. لكنها لم تقُل، كما كان لها أن تفعل، ففي الثمانين تستطيع أن تتحدّث بنُبوئيّة: ما نحن إلا وَقود. نولد ثم نُحرق، ويحترق بعضنا أسرع من البعض الآخر. هناك أنواع عدّة من الاشتعال. لكن ألّا تحترق، ألّا تمسك النّار بأيّ طرفٍ منك، فهذه هي الحياة الحزينة، أليست كذلك؟

لكنّها قالت ذلك، أو شيئًا من ذاك القَبيل، في أحد كتبها. ولو كان للحقيقة أن تُعرف، فهي أن حُزنها على دونالد هو حزن حياتها الثاني، وكان أشبه بانتهاء حياتها هي أيضًا. كان بإمكانها أن تقفز جواره في محرقة الجثث، لكنّها غدت كاتبةً أكثر مهارة وأوسع شُهرة.

في عين الخيال. لم يُنشر، لم يكتمل حتى –وفي بعض جوانبه بالكاد بدأ– حتى أُخذ منها دونالد في خريف عام 1945 جرّاء ورمٍ دماغيّ. ولقد كانت نكتته الباردة حول ذلك هي أنّه وُلد بدماغٍ فائض. وأخرى أيضًا هي أنّه فقد الفرصة الآن ليحنث بقسم الحفاظ على المعلومات السريّة طيّ الكتمان. لقد خاض الحربَ وخرج منها سالمًا لأنّ عمله كان فكّ الشّفرات، وعمله الأفضل سيأتيه لاحقًا. لقد فكّرت أن ذاك كلّه، يبدو الآن –وهذه نكتتها الباردة هي– وكأنّه من بنات الخيال.

«كلانا واقعٌ في المأزق نفسه، أنا ودونالد، نفكّر بالكلمات والأشياء...»

لقد قلّبت العنوان في رأسها الأشياء كلّها في الخيال. وقلّبت أيضًا عنوان الالتزامات السريّة. لكنّها تخيّلت فقط أن تنشُر كتابها تحت تلك العناوين. في عين الخيال... أو الأشياء كلّها في الخيال، لا يهمّ، فهما يعطيان عن الكتاب انطباعًا بالاقتضاب، مثل موتٍ دماغيّ. ها! عاشت اثني عشر عامًا زوجةً لفيلسوف.

في الحقيقة، كان ذاك أكثر كتبها جسدانيّة، وشهوانيّة، وجنسيّة بشكل لا يقبل التأويل. لقد عثرت على طريقتها الخاصّة لكتابة تلك الأمور. فأمسى هذا نجاحها الأوّل الكبير. كانت في الثّامنة والأربعين من عمرها، لم تكهَلْ بعد ككاتبة (هناك محاسنٌ لكونك كاتبًا.) لكنّها أكبر جدًّا من أن تكون الأُمّ، التي لأسبابها الخاصّة زهدت في أن تكونها. يمكنك القول إنها لم تُعطَ في حياتها أيّ مَثَلٍ جيّدٍ يحبّبها في الأمومة. عدا ميلي. والآن،

برحيل دونالد ونظرته الزرقاء الرماديّة وكركرته، تمنّت لو أنها أذعنت للأمر وأنجبت.

ثمانية وأربعون عامًا، ومشهورة. في عين الخيال. بعض الناس صُدموا واغتاظوا. فقد حدث ذلك عام 1950. سوف يبدو عاديًّا بعد عشرين عامًا تواتُر حدوث مثل تلك الشهرة اللحظيّة في الخمسينيات. ولقد كانت –ما يجعل الأمر أسوا– 'روائيّة'. روائيّة؟ من أين أتوا بمثل هذا التركيب؟ من أين يظنّونها قادمة؟

ثمانية وأربعون عامًا، ومشهورة، وأرملة ودون أبناء ولم تقطع بعد نصف سنوات يُتمها.

«أحملُ أخبارًا مُؤلمة.»

وفيما يتحدث السيّد نايفن، أظهرت الكلمات قدرتها على التلوّن مبتعدةً عن مسمّياتها. ودليل ذلك هو محاولته المستميتة للعثور على كلماتٍ مناسبة، وما عاشته من تجارب حديثة جعلتها وكأنّها قد سمعته يقول: 'أخبارًا عارية'. أحملُ أخبارًا عارية. خطأٌ لن تقع فيه حتى ميلي نفسها.

وعندئذ، بعد أن وجد الكلمات المناسبة، قال لها: «جين، لقد شحُبتِ أشدّ الشّحوب.» ولقد عبرَت ذهنها فكرة أن الشّحوب أمرٌ يحدث للناس بشكل طبيعي لكن في الكتب فقط. لقد 'شَحُبَ' أو 'امتقع وجهه' أو 'احمرّت عيناه' أو 'جرى دمُه باردًا' أشياءٌ توجَد في الكتب وحسب. في كتب قرأتها.

«آسف يا جين لأنني أقول لك ذلك، في أحد الأمومة.»
وكأن تواجده –يبدو الآن أنّه كان وحيدًا– هنا في منزل بيتشوود وفي هذه الساعة بالضّبط كانت غايته تحديدًا هي إخطارها بأخبارٍ تعنيها. وكأنّه أتى ليُخبرها بأمرٍ غير متوقّع، مثل أنّها دون أُمّ في أحد الأمومة!
«لقد وقعَ حادث، يا جين، حادث مروّع، لبول شيرينغهام. السيّد بول من بيت آبلي.»
ما كان حاضرًا من ذهنها جعلها تردّد قوله بشكل لا إرادي: «في آبلي؟»
«لا يا جين، ليس في آبلي. بل حادث على الطريق. حادث عربة.»
عندئذ قال «جين، لقد شحُبتِ أشدّ الشّحوب.» وبدا أيضًا أنّه تقدّم نحوها، مادًّا ذراعيه، بشيءٍ من التردُّد لكن بشجاعة، لأنّه ظنّها ستفقد وعيها.

لن تعرف أبدًا النسخة الذهنيّة التي احتفظ بها السيّد نايفن عن ذاك المشهد وما تبعه كلّه. كيف سيبدو لو أنّه 'كتبه' كما رآه. ولن تعرف أبدًا –لكن هذا بالتأكيد هو ابتداعُ ظنونها الفجائيّة المذعورة– كم كان يعرف عن أمرهما!
لن تعرف أبدًا (حتى عند بلوغها السبعين عامًا، والثمانين) كم كان الآخرون –من غير الكُتّاب– يفعلون ما فعلته هي من أمور في الخفاء. إنّه لغز.
بول شيرينغهام لم يعرف أيضًا. لكانَت أكّدت ذلك. وهذا هو –أو كان هو– سرّ احتفاظه بألقه.

لقد انطلق بعربته (كما تعرف) عندما –إلّا بتدخّل الشّعوذات– بات واضحًا أنّه إذا لم يحدث هناك عُطلٌ في قوانين الفيزيّاء، فإنه سيصل متأخّرًا حتمًا. لكنها تعرف (رغم أنها لن تبوح بذلك لأحد) أنّه لم يبذل من الجهد ما يُذكر ليستعدّ –بل على العكس– رغم أنّه في صدد لقاء زوجته المستقبليّة. لكنه لم يألُ جهدًا ليستعدّ بأناقة، وهذا ما هي متأكّدة منه حقًّا، لأنه بعد حادث السيّارة، لم يتشوّه جسده وحسب، بل واحترق. لكن متعلّقاته نجت، كما ستعرف لاحقًا، لتدُلّ على مستوى بذلته، وبالتالي هويّته: علبة سجائر موسومة بالحروف الأولى من اسمه، وخاتمه المنقوش أيضًا. والعربة نفسها لم تتضرّر إلى درجة تغدو معها غير معروفة، بل يُمكن القول فورًا إنها العربة التي يقودها بول شيرينغهام (بحماسة بالغة ملحوظة غالبًا.)

غير أنّه كان سيتأخّر كثيرًا في الأحوال كلّها، ما سيحوّل مشاعر إيما هوبداي التافهة في البداية والتي تضخّمت حتى حدود الحَيرة والغضب والسّخط، إلى تخمينٍ مروّع. يا رَبّ –لقد أوقفها الخبرُ فانتصبت قامتها. إن زوجها المستقبليّ اختار هذا اليوم –هذا اليوم الرائع– ليفصلها عنه بينما يتّخذ هو مخرجه. إنّه يدرس القانون حقًّا! لقد استغلّ فرصة البيت المهجور اليوم ليهجرها هي! ليندفع نحو نقطةٍ في المدى الأزرق. لأنه لم يحتمل مواجهة أمرَ زواجه –خلال أسبوعين– من امرأته المستقبلية، أو أيًّا من الالتزامات التي تلوح له في الأفق. فكانت هذه هي طريقته الرّهيبة للكشف عن مكنوناته.

باختصار، لقد هجرها بطريقة بالغة السّوء. ورغم معرفتها أنّ تصوّراتها الغاضبة قد تُخرج أسوأ ما فيها فتدخل في حالة هستيريّة، فإنّ جزءًا منها –الذي يعرف بول شيرينغهام– استمرّ يظنّ أنّ هذه ربما إحدى

سِمات شخصيّته.

وهكذا كان...

لكن وحدها هي، ربما، جين فيرتشايلد، خادمة منزل بيتشوود، من سوف 'تكتُب' هذا المشهد. ما كانت إيما هوبداي شخصيّة في كتاب، هل هي كذلك؟ لم تخلقها. لم تعرف قط كيف كانت إيما هوبداي ستكتب المشهد.

وهكذا كان... فلم تكتفِ الآنسة هوبداي بالجلوس هناك، تقلّب عينيها في ساعة يدها الصّغيرة اللمّاعة، أليس كذلك؟ سامحةً للآخرين بالنظر إليها؟ معدتُها تُقرقر في غير ارتياح. سألت الفندق (فندق البجعة في بولينغفورد) أن تستخدم جهاز الهاتف. بات وضعها مُحرجًا ولم يخطُر لها على بال. لكنها الآن تتوسّط عالمًا راح يخونها، ويُحرّرها من مستقبلها المرسوم أمامها. هاتفت أوّلًا منزل آبلي. لا جواب. راح الهاتف يقرع وكأنّه يقول: هذا المنزل شاغر، لا أحد هنا، ولا مِن مُجيب. وهذا ما كان.

وكان بعد ذلك أنّها ذرعت المكان هنا وهناك، تعُضُّ شفتيها حينًا، وتذهب إلى الخارج لتأخذ أنفاسًا عميقةً –أحيانًا أخرى– بينما تنظر إلى الاتجاهات جميعها، وتُصارع فكرة أنّها ربما تتصرف بجنون بعض الشيء، غير أنها هاتفت الشُّرطة. ربما كانت الشرطة ستلاحق –تلاحق وتقبض على– خطيبها الهارب! أو يأتوا لها بتفسيرٍ لغيابه يُنجيها ولو جزئيًّا من وضعها المُحرج أمام الناس.

وهكذا كان، في تلك الأثناء، وبوجود معلوماتٍ كانوا قد حصلوا عليها عندئذ، لم يكن أمام الشرطة أيّ خيار آخر سوى تلبية طلبها، لأجل إنقاذها ولو جزئيًّا من وضعها المُحرج أمام الناس.

وهكذا شرعت في سلسلة من المكالمات الهاتفيّة المتتابعة والمرعبة في الوقت نفسه. المُضيفون جميعًا في فندق البجعة في بولينغفورد لم يعد أمامهم سوى الاعتناء بامرأةٍ مصدومة لكنها ما زالت قادرة على كشف تفاصيل مهمّة. أجل، فندق جورج في هينلي. إلى الأمام قليلًا بمحاذاة النهر. لقد كانوا جميعًا هناك، كانوا هناك طوال الوقت.

هذا إذا لم يكونوا قد قرّروا الذّهاب في نزهة. أو إذا لم يكونوا، الآن ربما، وقد قرّروا ذلك في لحظة نزوة، يشقّون مياه نهر التايمز دون هدف وحيث لا يمكن الوصول إليهم، في قارب مستأجر. إن كلّ ما قاموا به هو بمثابة مُباركة مرحة مُشمسة للزواج الوشيك، الزواج الذي اعتذر الزوجان السعيدان عن حضوره بهدوء. لو أنهما فقط لم يؤكّدا حضورهما له بكلّ تلك الوداعة!

لكن، لحسن الحظ، كانوا جميعًا في فندق جورج، وعلى طاولة الغداء أيضًا، وما زالوا يلتقمون من حلواهم الخمريّة[11] ما يأكلونه.

وهكذا كان أمام كل فردٍ منهم يومٌ قد تغيّر مجراه.

وهكذا كان، قادَ السيّد نايفن عربته بنفسه عائدًا إلى هنا، لأسباب ما زال عليه الاستفاضة في شرحها. لكنّها أسبابٌ ما كان من بينها أن ينعي إليها بول شيرينغهام –فقد كانت بالنسبة له ما تزال عند ضفّة نهر التايمز، تستمتع بأحد أمومةٍ دون أم.

«جين، هل ترغبين في الجلوس؟»

لو أرادت ذلك لما كان هناك مكان سوى مقاعد عربة الهمبر، مكان إيثل وآيرس. لكنّها لم توشك على الإغماء، فما تزال متشبّثة بمقابض درّاجتها.

(11) Sherry Trifles.

كل الدلائل تُشير إلى أنّه كان يحاول الحدّ من تأخُّره عن الموعد –مهما كان ذاك الذي أخّره– لابد وأنّه قادَ عربته بسُرعة كبيرة أيًّا كانت. وقد سلكَ الطريقَ الفرعيّة رغم ضيقها ومنعطفاتها الكثيرة، فهي أقصر لأنّها عندما تلتقي خطّ سكّة القطار فإنها تعلو عليه بجسر. هكذا اتّقى الطريق الرئيسية التي تتقاطع والسكّة في مستوى الأرض، وتفادى احتمال أن يجد الطريق، لسوء حظّه، مُغلقة.

لكنه لم يجتز خطّ سكّة الحديد أبدًا.

عُرف عنه أنّه يُسرع في القيادة بعض الشيء، لكنّه عَليمٌ بالطرق المحليّة. لذا لابد وأنّه على معرفة بالطريق المختصرة –إذا كنتَ متّجهًا إلى بولينغفورد– وعلى معرفة أيضًا أن الطريق تنحني بوضوح إلى اليمين وتمتدّ نصفَ ميلٍ قبل جسر سكّة القطار. في الحقيقة، كانت زاويةً أكثر منها مُنحنىً، تُشير ربما إلى حيث اختلف مسؤولو المَسْح ومُلّاك الأراضي على التحديد، وحتى أنّه كانت تقف هناك شجرة بلّوط عملاقة في ذروة المُنحنى، وهي مكمن الخطورة، وهي التي اتّجه إليها بول شيرينغهام مباشرةً بعربته.

أشعّة شمسٍ خلّابةٍ كانت، وكان يومًا رائعًا. لا يوجد احتمال يدفع للظنّ بأنّه لم يرَ المنحنى، وشجرة البلوط العارية السّاكنة التي تقترب. هناك علامات في الطريق على أيّ حال. ولابدّ أنّه سلك هذا المنحنى عددًا لا يُحصى من المرّات. ربما تعطّلت كوابح العربة، غير أنّ حالتها لا تمكّن أحدًا من فحص ذلك. ربما –في غياب أيّ عربة أخرى عن المشهد– أنّ السبب بسيطٌ وبريءٌ رغم كونه مُهلكًا: أحد حيوانات المزارع عبرت الطريق أمامه. لكن هل تذهب لتصطدم بشجرة تجنّبًا لاصطدامٍ أقل ضررًا، هذا إذا لوحظَ من الأساس؟

الخُلاصة، وحتى ما وصل إليه المُحقّقون في تقريرهم، أن هناك حادثًا مروّعًا قد وقع. وهذه نتيجة توصّلوا إليها لا لغياب نقيضها، بل لأنها ما توصّل إليه الجميع –آل شيرينغهام وآل هوبداي بالتحديد، والذين لهما علاقات وطيدة بالأجهزة الحكومية المحليّة– أو ما تمنّوا الخلوص إليه.

لم يرغب أحد في تصديق أنه قبل أسبوعين من حفلة زواجه بالآنسة إيما هوبداي، وبينما كان في الواقع يقود عربته ذاهبًا إليها، اصطدم بول شيرينغهام بشجرة، وهو حادثٌ وقع، لا سبب وراءه ولا غاية له.

السيّد شيرينغهام الأب، لو سُئل بدوره، لأوضح دون شكّ أنّ منزل آبلي، بسبب خصوصيّة اليوم، لم يكن فيه أحد عندما غادره ابنه. كان ليقول إنّ الخادمة والطاهية لابدّ وأنّهما في منزلَي أُمّيْهما. وهذا ما قد يدفع السيّدة شيرينغهام إلى تشنّجات أخرى وضيق في الصّدر، ما قد يدفع رجل الشّرطة الذي يزورهم بدوره إلى الظنّ أنّه طرح من الأسئلة الكثير، فيضع جانبًا دفتر ملاحظاته.

لكنّها هي، جين فيرتشايلد، من ليس عليها الإجابة على أي أسئلة. ولِمَ عليها ذلك؟ إنّها الخادمة في منزل بيتشوود وحسب، لا في آبلي. لقد أقلعت ببساطة على درّاجتها، ولم تحُم في أيّ مكان قُربَ الحادث، هذا ما حصل (رغم أنّ السيّد نايفن ربما خمّن أنّ سبب شحوبها هو رؤيتها الحادث.) ثم عادت إلى المنزل، مبكّرًا بعض الشيء.

لم يتناهَ إلى سمعها من البُعد –وهي حقيقةٌ لم تُذعها أبدًا– بينما كانت تجول عاريةً في البيت، أيّ صوت اصطدام. هل كان هناك ما يُشير إلى حدوث اصطدام أو يُنبّه بوقوعه؟ فلم تقع عيناها أبدًا، من خلال النوافذ التي أطلّت منها في منزل آبلي، على أي لطخة دُخانٍ ترتفع في تلك السّماء الزرقاء.

لكنّها سمعت رنين الهاتف.

في الواقع، لم يُسندها السيّد نايفن. ليس حينها. أمّا هي فلم تفقد وعيها، رغم أنّها شحُبَت.

كرّر على مسامعها «آسف يا جين، أنا آسف جدًّا لاضطراري قول ذلك لك.»

لماذا بدا، في لحظة تغيّر الملامح وتخبّطها، أنّها ربما تحوّلت إلى أحدٍ آخر؟ يا له من تعبير: 'ألّا تكون نفسك'. لماذا بدا لها أنها ربما كانت إيما هوبداي؟ أو أنها ربما غدت ابنة السيّد نايفن نفسه (الابنة التي لم يحظَ بها قط) والتي كانت أيضًا إيما هوبداي؟ أو أنّ السيّد نايفن نفسه بات السيّد هوبداي، أنّ شخصيّات هذه القصّة قُلبت رأسًا على عقب؟

لِمَ كان الحال وكأنّ السيّد نايفن يضعها في مشاهد مُحيّرة كان من المحتمل أن تلعب دورًا فيها، لكنها لم تلعب؟ لقد كانت مجرّد خادمة، وحتى هذا لم تكُنه بعضَ الوقت يومئذ. لماذا بدا لها أن هذا اليوم، بمعناه المروّع الذي بات يحمله –ما عاد أحدَ أمومةٍ على الإطلاق– قد شوّش الترتيب المُعتاد للأمور بينها وبين السيّد نايفن؟

ربما كان يوجّه كلامه إلى زوجته.

«جين. جين، لقد تركتُ كلاريسا مع الآخرين. في هينلي، شعرَت أنّها سوف ستُخدَم بشكل أفضل اليوم هناك. بالطبع، إيما –الآنسة هوبداي– سوف تقود عربتها إلى هناك لتنضمّ إليهم. ولقد تساءلوا ما إذا كان من المفترض بهم جميعًا الانضمام إليها في بولينغفورد. هل

شرحتُ ذلك من قبل؟ أو ربما يذهبون جميعًا إلى منزل آل هوبداي. كانوا يتساءلون يا جين أين على كلّ واحد منهم أن يتواجد. لكنّي ظننت أنّي يجب أن أعود إلى هنا، يا جين. يجب أن أكون هنا كي...»

«أجل، سيّدي؟»

«كي أذهب إلى منزل آبلي.»

«آبلي؟»

«أجل. توقّفتُ هنا أوّلًا لأستخدم الهاتف. وهذا ما انتهيتُ منه للتوّ وكنت على وشك المغادرة. لقد تحدثت إلى كلار –السيّدة نايفن. ما زالوا في هينلي. لكنهم قرّروا لقاء الآنسة هوبداي في منزل آل هوبداي. هذا هو قرارهم. وأعتقد أنها الخطّة الأفضل. الآنسة هوبداي ستأتي أوّلًا. لا يرغب السيّد والسيّدة شيرينغهام في العودة الآن إلى آبلي. ليس الآن. تستطيعين فهمَ ذلك. سوف أقود عربتي إلى منزل آل هوبداي بنفسي لاحقًا. أنا مسرور، أعني أنني آسف، لأنني وجدتُ فُرصةً لأشرح لك الأمر كلّه. لكن، جين، لقد عُدتِ باكرًا...؟»

«ارتأيتُ يا سيّدي –هذا لا يهمّ الآن– أن أعود إلى هنا لأقرأ قليلًا من كتابي.»

«كتابك؟»

«أجل.»

«حسنٌ، إن كنتِ... فلابدّ أنني...»

«هذا لا يهمّ الآن، سيّد نايفن. كتابي لا يهمّ.»

«على أحدهم أن ينعي الخبر للعاملات في منزل آبلي، هل ترين؟ أخبرني السيّد شيرينغهام أنّ مَثيلتك هناك من بين العاملات –رقمك المعاكس– تُدعى إيثل. أمّا الطاهية فاسمها آيرس.»

«لكن...»

«أجل، أعرف، لقد ذهبتا لزيارة عائلتَيهما. مثل ميلي. لكن لابد أن يعرفا ما استجدّ من أمور في أسرع وقت ممكن. السيّد والسيّدة شيرينغهام أخبراني أنّ –آه يا إلهي الطيّب– بول نفسه أقلّهما معًا إلى محطّة القطار هذا الصباح، لكنهما ستعودان منفصلتين. وإيثل هذه ربما تسبق الأخرى. ولذا عليّ الذهاب إلى آبلي، هل ترين، كي أنتظرها، لأخبرها...»

«ماذا عن انتظارها في المحطّة، سيّدي؟»

«ليس ذاك المكان هو الأنسب لقول أخبارٍ مثل تلك. على أيّ حال، كيف لي تفقّد الأمور، جين؟»

«تفقّد ماذا، سيّدي؟»

«على أحدهم أن يتفقّد الوضع في منزل آبلي. أعني المنزل كما تركه السيّد بول.»

«لكن...»

«أجل، بالطبع، لقد غادر المنزل ببساطة. يا إلهي الطيب، لقد قضى وقتَه صاقلًا معلوماته القانونية كما يبدو. أجل، لابدّ وأنّه غادر المنزل ببساطة. ليس هناك أي وضعٍ لتفقّده. لكنني أشعر بأنّ على أحدهم تفقّد الأمر. أن يُعدّ آل شيرينغهام، أعني أن يُطمئنهم للعودة، فهم ليسوا مستعدّين للعودة إلى هناك الآن. يرَون أنّه عليهم التواجد مع الآنسة هوبداي. لكن يمكنك أن تتخيّلي، جين، يمكنك أن تتخيّلي حالتهم –لقد عرضتُ عليهم أن أقوم بما قلته لك توًّا، أن أتفقّد الوضع في آبلي. قالوا إنه حين يغادر المنزل –السيّد بول– ولأنّه بات شاغرًا، فإنه يترك المفتاح تحت قطعة حجر، قطعة لها شكل الأناناس، هكذا قالوا. السيّد شيرينغهام قال قطعة حجر لها شكل الأناناس، عند

الشُّرفة. لهذا...»

«لهذا...؟»

«عليّ القيادة إلى آبلي، كي أنتظر تلك الإيثل، وأتفقّد...»

لم يبدُ السيّد نايفن مستعدًّا للمهمّة التي تبرّع أن يتولّاها. ثمّ تنحنح بحَلْقه المتورّطة.

«جين، هل لي أن أسألك أمرًا؟»

«تسألني ماذا، سيّد نايفن؟»

كانت ما تزال تشدّ على مقابض الدرّاجة. ولاحظت أنها تكبس بأصابع كفّيها كاملةً على المكابح، رغم أنها كانت واقفة، بهدوء وثبات، جوار الدرّاجة.

«هل لك أن ترافقيني؟»

«أذهب معك، سيّدي؟»

«بالطبع. أتفهّم أنّه ما زال يومك. إن أحببت، جين، إن أحببت أن تقرئي كتابك اليوم وحسب...»

«كتابك، سيّد نايفن» ليس لديها أدنى فكرة لِمَ صحّحت له الكلام.

«بالطبع.»

عبرَ وجهَه تعبيرٌ لم يدُم غير لحظة، وكأنّ بداية ابتسامٍ انقلبَت إلى شيءٍ آخر.

هل كان على وشك البكاء؟ لكنّه لم يكن ابنه. إنّه مجرّد جارٍ متورّط.

«أجل، سيّدي، سأرافقك.»

«أقدّر لك هذا يا جين. يا لصنيعك الجميل. أفترض أنّك لم تدخلي قط منزل آبلي...»

«هل تمانع، سيّد نايفن، أن أدخل أوّلًا لأشربَ كأس ماءٍ قبل الذهاب

إلى آبلي؟»
«لك ذلك، بالطبع... اعذريني. إن الذي حدث صدمني وما يزال. وأنتِ قضيتِ النهار على الدرّاجة هنا وهناك! أجل، أجل، أجل بالطبع، لابدّ لك أن تجمعي نفسك، أن تُنعشي نفسك. اعذريني. سأكون هنا، جين، عند السيّارة، في انتظار أن تجهزي.»

تلك الدقائق الخمس من الانتظار تقريبًا، ربما، هي ما أحدثت الفرق. إذ متى حدث ذلك من قبل قط: السيّد نايفن ينتظرها؟ وحتى أنّه كان واقفًا جوار السيّارة عندما ظهرت من جديد، بينما بابها المبطّن بالجلد مفتوح لها. عبرت إيثل وآيرس، مرّة أخرى، أفكارها.
ما إن دخلت المنزل –منزلًا شاغرًا آخر– فاض دمعها حتى غرق وجهها به. كان ذلك قبل أن ترشحه بماءٍ بارد، ولربما خنقَت صرخةً ما.
استقلّا العربة إلى آبلي. لم تكن بالمسافة الطويلة على الإطلاق. لكنّه قاد العربة ببطء وحِرصٍ شديدَين، وكأنّه ذاهب إلى موعد يأمل ألّا يَفي به. استصعبا الحديث. أجل، شعرت وكأنها إيثل. ولربما كانت عندئذ إيثل نفسها.
وحدثَ أن إيثل نفسها سبقتهما إلى المنزل. إيثل، الطيّعة المُطيعة، قرّرت وكأنها لا تعرف ما تفعله في يوم حُريّتها، أن تعود في وقتها المحدّد تمامًا، وحتى أنها حضّرت الشاي لآل شيرينغهام، وذلك تحسُّبًا لأن يعودوا مبكّرًا إلى المنزل فيطلبون شُربَه. إنّ 'يومها' مع والدتها عبارة عن ساعات معدودة، وربما لأسبابٍ تخصّها لم تفضّل تمديد ساعاتها إلى

وقت أطول. لربما هبطت من قطار السّاعة 03:42 ثمّ بيساطةٍ سارت إلى هنا. المسافة ميلٌ واحد تقريبًا. هناك دروبٌ مُختصرة بين الحقول. ولربما كان لون الشّمس الذهبيّ أكثر دُكنة. أزهار الرّبيع تطلّ من كلّ مكان، وأرانبٌ تتقافز هنا وهناك. ربما استغرقت إيثل الخفيفة في قَطْع الطريق عشرين دقيقة. وربما كانت أفضل عشرين دقيقة في يومها.

وحتى قبل أن يصلوا إلى آبلي، بينما يقودان العربة بين أشجار الليمون، رأَت هي علامة الوشاية: نافذة الطابق العلويّ. وشاية لها وحسب. إنها مُغلقة الآن. أحدٌ ما قام بإغلاقها. من غَير إيثل؟ إيثل كانت في غرفة النّوم وفعلت ذلك.

وهكذا كان، بعد أن أدركت ما رأت، شهقَت بصوت عال، سمعه السيّد نايفن بينما تدْرُج عربته في الطريق. ولربما ظنّها السيّد نايفن شهقةً عاديّة سببها الحُزن والتوجُّع، فكلاهما يفكّر دون شك –ولو بطُرُق مختلفة– كيف أنّ بول شيرينغهام قادَ سيّارته على هذا الطريق نفسه قبل ساعات قليلة، لكن في الاتجاه المعاكس. ولآخر مرّة. ولهذا قال السيّد نايفن دون حاجة «أجل، الأمر مروّع، جين.»

ولقد كانت شهقة حُزن، لكنّ جزءًا صغيرًا منها كان سببه الارتياح. وعدا ذلك فهي لم تبُح بشيء، ولم تخُن.

بحلول ذلك الوقت، كانت الشمس قد ابتعدت عن واجهة البيت وساحته. فعندما ترجّلا عن العربة، شعرا بنسمة هواء باردة وواضحة بعد حرارة مُنتصف النهار. وبينما راح السيّد نايفن يبحث عن «شيء كالأناناس»، وبينما أحجمت هي عن الإشارة إليها أو التفوّه بأيّ شيء، شرّعت إيثل الباب الأماميّ فجأة، كما كانت لتفعل في الأيّام العاديّة، فقد بدا لها أن هناك زُوّارًا يقفون بالباب. وربما أنّها ظنّت، وقد تناهى

إليها صوت السيّارة، أن السيّد والسيّدة شيرينغهام قد عادا. غير أنها تقف هناك في الشُّرفة بشكل غير متوقّع، مُحاطةً بهالةٍ توحي بأنها المسؤولة الآن هنا، والحارسة لكلّ هذا الصَّرح السكنيّ الضّخم في آبلي.

«السيّد نايفن...؟» هذا ما استطاعت إيثل جمعه من كلمات، ممزوجةً بدهشةٍ واتّزانٍ مُطلقٍ لم توحيا بأنّها سُرَّت بالأُحجية التي أمامها: ما الذي جاء بالسيّد نايفن رفقةَ جين، خادمة بيتشوود؟

هل عُرض على الخادمات جميعهن اليومَ خدمات توصيل؟

ثمّ سألها السيّد نايفن «أنتِ إيثل، ألستِ كذلك؟» ما زاد الأحجية تعقيدًا.

وهكذا كان، لم تكن من حاجةٍ لانتظار إيثل. لقد جاهدت، لاحقًا، لتتصوّر ما حدث وتستوعبه. أمّا عمليّة إخطارها بما حدث فقد جرت في الشرفة الأمامية. فلن يأمُر أحدٌ إيثلَ بالدخول إلى المنزل والجلوس، ليس من قِبَل السيّد نايفن الذي لم يكن سيّدها، رغم أنّ هيئته تقول بوضوح إنّ هناك أمرًا فظيعًا على وشك أن يبوح به. وهل ستأتي خادمة منزل بيتشوود تلك إلى الداخل أيضًا لتجلس؟

إيثل، في الحقيقة، انقلبت بغتةً. أو أن حقيقتها الإيثليّة قد ظهرت. لن تعرف أبدًا (ولا حتى بول شيرينغهام) هل أخطأت منذ البدء في فهم إيثل واستيعاب شخصيّتها؟

عينا إيثل، بينما كان السيّد نايفن يصارع ليجد الكلمات المناسبة مجدّدًا، انسكبتا فجأة وكأنّها هي، إيثل بلاي، كانت تعرف كل شيء. لكنّهما يقولان، ربما، في الوقت نفسه، بتواطؤ 'نحن الخادمات، علينا البقاء بعضنا مع بعض، أليس علينا ذلك؟ وأن نعرف أيضًا مقامنا في هذا العالم؟'

امتدّت نظراتها إلى أبعد، فما كانت مجرّد نظرات ذهول وحيرة 'وما الذي تفعلينه أنتِ هُنا؟ ما دعاكِ إلى مرافقة سيّدك؟'

وراء إيثل، ومن خلال الرّدهة وظِلال الصّالة، تستطيع أن تستبين الطاولة وعليها المزهريّة الحاملة لسيقان أزهار الأوركيد. بدا الأمرُ مُعجزًا، أن تجدها ما تزال هناك!

«أحمل أخبارًا سيّئة يا إيثل» شرعَ السيّد نايفن بالحديث «هل لي أن أناديك إيثل؟»

«أجل سيّدي.»

وهكذا كان، أُخبرت إيثل بما جرى. واقفة هناك، مثل مدافعٍ لا يتزحزح عن الشُّرفة الأماميّة، وكأنّها غدت مستعدّة، وقد غزا البيت من الأذى الكثير، لأن تدافع عنه وتصدّ أيّ اعتداء قادم. وحتى أن السيّد نايفن، الذي ما زال وقتئذ يقف في ساحة المنزل، انكمشَ أمام سُلطتها المُباغتة.

«ربما قُدّر لي، سيّد نايفن، العودة باكرًا، لأكون جاهزة للمساعدة. لقد حدست بقلبي أن هناك أمرًا سيّئًا. أمرًا يستدعي مساعدتي. السيّد والسيّدة شيرينغهام وحدهما دون أحد. لابدّ وأنهما في حالةٍ يُرثى لها مرّة أخرى» قالت إيثل 'مرّة أخرى' بتمهّل. «سيجداني هنا عندما يعودان. وسوف أُخبر الطاهية عندما تعود. سوف أرعى... سوف أرتّب... ولو تطلّب الأمر فسوف أقوم بالاتصالات الهاتفيّة اللازمة.»

«إيثل...»

لكنّ إيثل مضت في كلامها، باستخفافٍ نادرٍ ربما لقاعدة أن تتكلّم عندما يُطلب منها ذلك وحسب.

«لقد انتهيتُ من ترتيب أرجاء المنزل، كما قمتُ بترتيب غرفة السيّد بول...»

«وهذه هي المسألة تحديدًا يا إيثل...»

«المسألة، سيّد نايفن؟»

«أحتاج أن أسألك أمرًا... أنا هنا لتفقّد...» عثرَ السيّد نايفن في الكلام. «هل وجدتِ أيّ شيء في غرفة السيّد بول؟»

«أيّ شيء؟ لا أعي ما تقصده، سيّد نايفن.»

«مثل رسالةٍ قصيرة ما، إيثل. أيّ ملاحظةٍ مكتوبة...»

«لا، سيّدي. لم أعثر على أيّ شيء مكتوب. وما كنتُ لأقرأه لو وجدته، سيّدي.» ثمّ بدت إيثل وكأنّ كلماتها القادمة ستكون لاذعة ومفاجئة، مثل 'هل هذا كلّ شيء، سيّدي؟' أو ربما تجرؤ على قول 'وما شأنك أنت في ذلك؟'

«إن كان كذلك، فالأمور حسنةٌ إذًا يا إيثل. الأمور كلّها... كلّها حسنة.»

«هل أنت على ما يرام، سيّدي؟ هل تحتاج كوبًا من الشّاي، أو أيّ شيءٍ آخر؟»

«لا، شكرًا إيثل. هل أنتِ على ما يرام؟ هل تحتاجين... رفقتنا؟ أو رفقتها، أعني جين؟»

ذاك احتمالٌ لم تأخذه، خادمة منزل بيتشوود، في الحسبان، ولم تستعدّ له، فانتظرت باستسلامٍ لطَمَع إيثل في استغلال المبادرة.

«لا سيّدي، أستطيع تدبّر الأمر، شكرًا.»

قالت ذلك دون أن تنظر إلى السيّد نايفن، بل قالته بينما تنظر بصرامة ومُباشّرة إليها، إلى 'رقمها المعاكس'.

وكانت نظرةً كالّتي يحدجها أقسى الآباء وأكثرهم صفْحًا ورحمة.

لذا، ستبقى تجهل كثيرًا من الأمور إلى الأبد. لكنها تعرف الآن أنّ إيثل ولا شك، بحلول وقت عودة آل شيرينغهام إلى المنزل، 'رتّبت' بتؤدة غرفة السيّد بول: البنطال المرميّ جانبًا، وأغطية الفراش. لقد أبدلت الشراشف بأخرى جديدة (رغم أنّه لن ينام عليها أحد، ولابدّ أن إيثل فكّرت في هذا لاحقًا) ثم وضعت الشراشف المُزالة في سلة الغسيل، في انتظار قِدر الغسيل النحاسيّ الضّخم، والذي يُعدّ ويُسخّن أيّام الإثنين. وطاولة المطبخ –وهو معروفٌ بسيطٌ أسدته للطاهية آيرس– مُسحَت ونُظّفَت. وعاد كل شيء إلى مكانه. رغم أنّ كل شيء اختلف إلى الأبد.

ولسوف تظهرُ إيثل، يومًا ما، في شخصيّة ثانويّة (ليست ثانوية بذاك القدر) في كتاب لو عُرِفَت الحقيقة. لسوف تتحوّل شخصيّتها (لن يعرف هذا أحدٌ غير الكاتبة) ولسوف تُكرّمها بواسطة الرّواية. لن تُدعى باسمها، إيثل، في الكتاب (سوف تُدعى إيدث) ولن تكون أصلًا خادمة بأي شكل من الأشكال، لكنّها ستكون إحدى تلك الشخصيّات التي تتواجد، فيما يبدو، على حدود الأحداث وخارجها لكنها تعرف كل شيء. ولسوف تكون إحدى تلك الشخصيّات التي تبدو 'شخصيّتها' الحقيقية غير متوقعة ولا مُدركة تمامًا. ثمّة حقيقةٌ عامّةٌ ستُدركها، الكاتبة، وقتئذ، لتُطبّقها في خلقها إحدى شخصيّاتها الأدبيّة، وهي حقيقة عن الناس والحياة.

لكنها لن تدري أبدًا الكمّ الذي كانت إيثل تعرفه طوال الوقت. ولن تدري أبدًا ما فعلته إيثل أو فكّرت فيه أو تخيّلته أو شعرت به عندما تُركت مجددًا وحدها في ذاك المنزل في الفترة الزمنية قبل عودة آل شيرينغهام (والطاهية آيرس،) حتى أنّه، بعد بعض الوقت، ظهر رجال

الشّرطة على الباب لطرح أسئلة روتينية.
يغلب الظنّ أنها لم تتمكّن من إرسال بطاقة شُكر إلى أمّها على إظهارها الحفاوة لزّيارتها وما أكرَمتْها به يومئذ.

قادا العربة عائدَين. راحت الشّمس تنخفض أكثر فأكثر، وتغدو برتقاليّة. النهار يخبو، ويتقصّف. إنّه آذار وحسب. ولسوف تُشعل إيثل القناديل أيضًا، لا شك، فتلك من بين مهامّها. فالأجدى فعله في ظروفٍ كهذه هو أن تُبقي قناديل المنزل مشتعلة. تمامًا كما ستفعل هي قريبًا جدًّا، عندما تعود مرّة أخرى خادمةً في منزل بيتشوود.
لكن، في هذه اللحظات، من هي؟
قطع السيّد نايفن الصّمت الطويل بالقول «أعتذر عن إمساكك عن القراءة يا جين. أعتذر بشدّة لأنني استهلكت وقتك تمامًا. ما الكتاب الذي تودّين قراءته؟ لقد نسيت.»
«لا بأس يا سيّدي، فذاك غير مهم.»
كانت تجلس وإيّاه جنبًا إلى جنب، في المقعد الأمامي، حيث تجلس السيّدة نايفن عندما يقود زوجها العربة. كانت تحاول أقصى جَهدها كي لا تنوح وتبكي، كي تستجمع نفسها.
كم تمنّت أن يقول لها 'لابدّ أن تقضي هذه الليلة دون عمل. لابد أن تحظي باستحمامٍ دافئٍ وطويل'. لكن الخادمات لم يحظين قط بحمّاماتٍ دافئة وطويلة، أو يُعطين دون جَدْوَلَةٍ ليالِيَ حُرّة لهن، خصوصًا عندما يكُنّ قد قضين النّهار دون عمل. بعد قليل سوف تعود

إلى واجباتها. عليها أن تكون على الأقل قويّةً قوّةَ إيثل.
الليلُ الذي بات يتراكم، والضّوء المشمشيّ، والعالم الأخضر الذهبيّ الرّقيق، كلّها كانت مستحيلة الجمال.
وبعد صمتٍ طويلٍ آخر، قال السيّد نايفن: «صاروا خمسةً، يا جين.» عرفَت ما كان يقصد. عرفَت تمامًا ما عناه. لكنّها قالت «أجل، سيّدي» بالأسلوب الذي تتفوّه به الخادمات هذه الكلمات ردًّا على أيّ شيء في العموم.
ثمّ، عندما دار بالعربة ودخل ساحة منزل بيتشوود الأماميّة، وأطفأ المُحرّك، مالَ إليها ومثل طفل، انخرط في البكاء –وبقبقَ– وحتى أنّه دسّ رأسه في صدرها، ووجهه يضغط نهديها، فتذكّرت –هل حدث ذلك فعلًا هذه الظّهيرة؟ – عندما كبسَت نهديها بصفحات الكتاب المفتوح.
قال السيّد نايفن، بينما وجهه ما برح حيث كان «أنا آسف يا جين، آسف.» فقالت بينما تُمسّد مؤخّرَ رأسه لا إراديًّا «لا بأس عليك، سيّد نايفن، لا بأس عليك.»

عنوان الكتاب هو الشّباب[12] –الكتاب الذي كانت لتقرأه على كرسّي الحديقة، أو لتُخبر عنه السيّد نايفن عندما سألها. أمْكنها أن تفه بتلك الكلمة الغريبة وحسب 'الشّباب'.
أو أن عنوانه كان تحديدًا سَرْديّة الشّباب: وقصّتان أُخريان، عنوانٌ أخرق، هريسُ كلماتٍ لا يُثير فيك أيّ شيء. كان الكتاب الوحيد الذي

(12) Youth.

لجوزيف كونراد في مكتبة منزل بيتشوود، وتلك السّرديّة التي عنوانها الشّباب هي فاتحة الكتاب، وهي فاتحة جيّدة على أيّ حال إذ أنها، كما ستعرف لاحقًا، مبنيّة بناءً هشًّا على تجارب كونراد المبكّرة وعلى أوّل لقاء له (ستعرف لاحقًا أنه كتب عن ذلك مرارًا) بأمرٍ –برؤية، وعد، حقيقة، وهم– يُدعى 'الشّرق'.

على أيّ حال، إنّه الكتاب الذي بالكاد بدأت قراءته، في أحد الأمومة ذاك، ولو أنّ يومها جرى مجرىً مختلفًا، لو أن الهاتف لم يرن، لكانت بسهولة كبيرة أنهت السّرديّة في زاوية مشمسة من باركشير أو في حديقة منزل بيتشوود. ولربما شرعت أيضًا في قراءة القصّتان الأخريان. عنوان إحداهما 'قلب الظّلام' وانتبهت لاحقًا (وقد حدث في أحد أمومتها ما حدث) إلى أنّه مرّ وقت طويل جدًّا قبل أن تعيد قراءة تلك القصّة، رغم معرفتها أنها اكتشفت في جوزيف كونراد شخصًا ذا قيمة. لقد كان العنوان المُحرَّم، ربما.

عرفَت أن ما كتبه كونراد يختلف الاختلاف كلّه عن كلّ ما قرأته، ورغم ذلك، أحسّت أنّ لديه ما يفوقها وماهي غير مستعدّة له. الأمر أشبه بقراءة جزيرة الكنز والمخطوف. مع انعدام الرّغبة في قراءة الدكتور جيكل والسيّد هايد.

لقد أحبّت كلمة 'سرديّة'، إنّ لها رنينًا وصوتًا واثقًا في النُّطق، لكنها لم تعرف لمَ دُعيت تلك الكتابة بالسرديّة فيما البقيّة مجرّد قصص. إن الكلمة الأكثر قُربًا إلى قلبها هذه الأيّام هي 'حكاية' -ولقد أسعدها أن كونراد فَضَّلها مرّات عدّة أيضًا على غيرها. هناك ما يُغري ويُغوي في دعْوَة كتابة ما بأنها حكاية، لا قصّة. لكنّه أمرٌ يتعلّق، ربما، باقتراح أنّ ليس كلّ مكتوبٍ هو بالضّرورة مُخلصٌ للحقيقة، بل ربما كان العنصر

الأكبر فيه مُبتكرًا.

وفيما يتعلّق بتلك الكلمات جميعها –حكاية، قصّة، وحتى سرديّة– هناك سؤال ما، يحوم دومًا في الخلفيّة، عن الحقيقة، إذ يصعب القول كم من الحقيقة هناك في كلّ كلمة. هناك أيضًا كلمة 'رواية'[13] –في يومٍ ما، ستُمسي هذه الكلمة هي شغلها الشاغل– والتي تبدو وكأنّها تحمل نفورًا تجاه الحقيقة وتمجّها. خيالٌ صاف! لكنّ كتابةً تبدو تمامًا من وحي الخيال قد تحتوي أيضًا –وهذه هي عُقدة المسألة وغموضها– على شيء من الحقيقة. عندما قرأت العناوين الثلاثة السّابقة، شعرت أنّه يمكنها القول إنّ الدكتور جيكل والسيّد هايد أكثر صدقًا من جزيرة الكنز والمخطوف. رغم أنّ أحدهم قد يقول بأن الكتاب الأوّل هو الأغرب بالتأكيد والأشدّ رُعبًا من بين الثلاثة.

'أن تروي الحكايات': قد تكون عمليّةً من تلفيق الأكاذيب ومزجها. مثل 'غزْل الخيوط' خيوط الحكاية. يبدو حقًّا أن 'غزْل' هي الكلمة الأنسب لكتب المغامرات تلك التي انجذبت إليها مبكّرًا في مكتبة منزل بيتشوود، وقد تساءلت وقتئذ ما إذا كانت تلك الكتب، بالفعل، دون فائدة؟ إنها خيوط غزْل. في كلمة غزْل وحدها تجدُ نكهةً مالحةً ملوحة الرّجال والبحار. وهكذا فإن كثيرًا من 'كتب الفتيان' تلك تحوي، بشكلٍ أو بآخر، ذهابًا إلى البحر –رحلة بحريّة، وأرضًا غير معروفة– وكأن ذلك هو نُسغ أيّ مغامرة، وهي ما يسعى أيّ صبيّ لخوضه. وها هو جوزيف كونراد الذي يبدو وكأنّه أحد أولئك الفِتية.

لقد أحبّت كلمة 'الشّباب'. أو ربما شعرت أنها تتحدّاها، لأنّها لم تكن في أيّ حال من الأحوال مناسبة كعنوان لحكاية، أو قصّة، أو سرديّة –أو حتى مغامرة. لقد بدت وكأنّها مجرّد فكرة. رغم أنها عندما قلّبت

صفحات الشّباب في مكتبة منزل بيتشوود، بدت وكأنها تحمل كل ما اعتادت عليه من حياة البحار وخوض لججها، والغزْل كلّه. وربما كان ذلك ما ظنّه أيضًا أحد صِبية آل نايفن، أو كانوا شُبّانًا عندئذ، لكن من الواضح أنّه لم يقرأ كثيرًا من الكتاب، هذا لو كان قد قرأ منه شيئًا على الإطلاق. على خلاف الكتب الأخرى في الحافظة الدوّارة، فقد بدا نظيفًا وجديدًا. وكان يحملُ أيضًا توقيعًا، بحبرٍ أزرقٍ داكن (ج. نايفن، أكتوبر 1915) وقد بدا جديدًا وكأنّه كُتبَ يوم أمس. وربما كان هذا سببًا آخر وراء اختيارها الكتابَ إيّاه.

كونراد، كما شعرت توًّا، يُمكن بشكل عام أن يُدعى 'الكاتب المتحدّي'. ' قلب الظّلام'... ربما فكّر في ذلك أيضًا ج. نايفن. لم تكن تلك الكلمات 'الكاتب المتحدّي' وقتها جزءًا من معجمها اللغويّ النقديّ ككاتبة، وبالتأكيد لا تشكّل لقبًا يُمكن أن تتخيّل أن يُطلق عليها يومًا ما. بل سوف تستقبلها، عندما تُلقى عليها من هنا وهناك، كمجاملة وإطراء لا أكثر. وهناك أناسٌ يستخدمونها بمعنىً سلبيّ. فتلك كانت طريقةً أخرى للقول بأن ما تكتبه 'كريه'. حسنٌ، تلك مشكلتهم هم.

«كونراد،» ستقول هذا في إجابتها على أحد تلك الأسئلة المكرّرة المملّة «أوه كونراد –إنّه هوا!» وكأنها تتحدث عن أحدٍ قابلته في الحقيقة، ولقد فعلت ذلك بشكلٍ ما.

«أوه كونراد، لقد أحببت كل تلك الحيوات البحريّة.»

«لكنه كاتب يفضّله الرجال... ألا تظنين ذلك؟»

«ومأخذك على ذلك هو...؟»
سببٌ آخر وراء حُبّها كلمة الشّباب، وهو أنّ الشّباب هو كل ما كان لديها في ذاك الزّمن. لقد كانت 'شابّة'. مع أنّ كلمة 'الشّباب' مثل 'الغزْل' فيها ما يوحي بانحياز قويّ إلى عالم الذّكورة. يمكن للرجل أن يغدو 'شابًّا'، لكن ماذا عن المرأة؟ عمومًا، كان في كل شيءٍ مَيْلٌ صارخٌ إلى الذّكورة والرّجولة عام 1924.
كان هناك، في كلّ الأحوال، سؤال حول الشّباب (إنّ في مُفردة الشّباب شيئًا من صفات المطّاط): متى يبدأ الشّباب، ومتى يتحوّل إلى أمرٍ آخر؟ بالطبع، حدث ذلك وهي في الثانية والعشرين من عمرها. وفي عام 1924 كان القَرْن كلّه في شبابه... لكن، في الحقيقة، لم يكن ذاك هو الواقع قط. الشّباب –لُفافات طويلة منه– هو بالضبط ما فقده القَرنُ مُبكّرًا. وأجل، بحلول عام 1924 يمكن القول إن كونراد بات قديمًا وتمّ تجاوزه، صار متخلّفًا عن الزّمن. سفنٌ مُبحرة؟ الشّرق الغرائبيّ؟ ألم يعرف ما الذي حلّ بالعالم؟

لكنّه، بالنسبة لها، هو الكاتب الحقّ. ففي ليلة أحد الأمومة عام 1924 عندما، ولأسبابٍ مفهومة، لم تستطع النوم أو أخذ قسطٍ من الرّاحة على الإطلاق، التقطت من جديد الشّباب لجوزيف كونراد. وما الذي تستطيع فعله غير هذا؟ تبكي؟ ثم تبكي مرّة أخرى؟ في سريرها الخشبيّ الضيّق. الناس يقرأون الكتاب، أليس كذلك، ليبتعدوا عن أنفسهم، ليهربوا من متاعب حياتهم.

ولقد كانت قصّة مغامرة، ولم تكن. بل إنها مختلفة، تحمل ما يخصّها وحدها. إنها تدور حول خمسة رجالٍ خشنين سلكوا في حيواتهم طرقًا مختلفة، غير أنهم خاضوا مرّة غمار البحر في شبابهم، وقد تقدّموا الآن في السّن، ويجلسون مُحيطين بطاولة، ويغزلون. لقد استطاعت أن ترى الرجال يحيطون بالطاولة، ورأت وجوههم المتغضّنة. أحدهم كان يُدعى مارلو، وهو من كان يحكي قصّته. لم تكن حقًّا قصّة مغامرة على الإطلاق. لقد كانت تدور حول سفينة قديمة وعريضة، فيها شيء من القِصَر، كان حظّها دومًا سيّئًا، فلم تبتعد كثيرًا عن المياه القاتمة لبلدها، والتي في أحد الأيام، في نهاية القصّة، النهاية التي غدت بدايةً أيضًا، تفعلها أخيرًا، وتُبحر إلى الشّرق.

عندما أنهت قراءة الشّباب؛ وقصّتان أُخريان، بل وأمكنها أيضًا أن تقرأ 'قلب الظلام' –وقد كان كتابًا مُتحديًا بالفعل، ولا يشبه شيئًا ممّا قرأته على الإطلاق– أدركت أنها تحتاج مزيدًا من كونراد، ولهذا كتبت إلى متجر الكتب في ريدنق، فقد كان المتجر يُرسل الكتب بالبريد. ما زال لديها نصف الكراون الذي أعطاها السيّد نايفن، دون ذكر أنصاف الكراونات الأخرى التي جمعتها. تستطيع من القرية أن تبتاع إيصال دفعٍ مالي عن طريق البريد[13]. وربما كان التعامل مع متجرٍ للكتب بهذه الجُرأة هو ما جعلها تفكّر: متجر كتب، متجر كتب...

ابتاعت كتابًا عنوانه لورد جيم، والذي لم يكن يختلف كثيرًا عن الشّباب.

(13) Postal Order.

لكنّه أطول منه، ومُحرّض أيضًا. ولقد أُلحق العنوان بكلمة: 'حكاية'. وهي تضمّ، مرّة أخرى، ذاك الرّجل مارلو، وكادت أن تعتقد بأن مارلو هو كونراد نفسه لكنّه يتخفّى. ثم ابتاعت كتابًا عنوانه العميل السرّي، والذي كان مختلفًا جدًّا، فأحداثه لا تجري في الشّرق وليس فيه سُفُن، بل في الشوارع الخلفيّة القذرة من لندن، لكنها ما زالت تحمل إحساس الدخول إلى أماكن خطيرة وغامضة وغير معروفة، أماكن لو كانت هي تملك الكلمة المناسبة عندئذ، لأسمتها الأماكن 'الكونراديّة'.

راحت، في ذلك الوقت، تراودها فكرة أن كونراد نفسه هو عميلٌ سريّ بشكلٍ ما، إذ ينزلق بين عوالم مختلفة تمامًا. وستعتقد لاحقًا، بعد مرور زمنٍ طويل، وستقول أيضًا، أن الكُتّاب جميعًا هم عملاء سريّون. لكن الحقيقة ربما كانت –رغم أنه لا يمكنها قول ذلك– هي أننا جميعًا عملاء سريّون، هذا هو ما نحن عليه.

على أيّ حال، عندما انتهت من قراءة العميل السريّ. وبالحماقة نفسها التي وجدتها فيه، تشكّلت في داخلها رغبتها وأمنيتها السريّة في أن تغدو كاتبة. فلم تكن غريبة على كتم الأسرار!

لم يكن ذاك هو اسمه الحقيقي –كونراد– كما اكتشفت لاحقًا، فأصل الرّجل بولنديّ. ولذا اتّخذ له اسمًا يشبه اسمها بعض الشيء، ولم يكن ذاك من أجل استخدامه كاسم كتابيٍّ وحسب، بل إنه اسمه 'الإنجليزي' أيضًا. لكن الأمر الخارق بشأن جوزف وكونراد، ومدعاة الذهول منه، هو أنّه من أجل كتابة كتبه تلك كلّها، لم يكن عليه أن يتعلّم كيفيّة الكتابة، بل وأن يكتب بلغة أخرى تمامًا. وهذا ما يكاد يصعب تصديقه. أشبه بتخطّي حاجزٍ يستحيل –ولا يمكن– عبوره، وشعرت أن هذا ربما هو الأمر الأهم، الإنجاز الأعظم والمغامرة الحقّة،

وأعظم حتى من الذهاب في كلّ تلك الرحلات البحريّة أيّام شبابه، وأكثر إثارة من الوصول إلى الشّرق.

وكان ذاك ما عليها فعله لتغدو كاتبة: أن تتخطّى حاجزًا مستحيلًا. وهي أيضًا، ستفهم هذا لاحقًا، سيتوجب عليها أن تجد لغتها، رغم أنّها تملك لغة، لأن العثور على لغة، العثور على اللغة، هو الغاية الحقيقية –كما ستفهم لاحقًا– من الكتابة. لكنّها نادرًا ما ستذكر تلك الأمور في المقابلات واللقاءات، فهي لحميميّتها باتت نُسغًا في العِظام.

«كونراد، أوه أجل، إنّه يحمل ما يخصّه وحده ويميّزه» وكأنّها كانت تتحدث عن عاشقٍ لها قديم.

ولو كان للحقيقة أن تُعلَن، فإنّها خلال أشهُرها الأخيرة في منزل بيتشوود، وقبل أن 'تذهب إلى أوكسفورد' وجدت أن العالم ما يزال ممتعًا ومُثيرًا، فقد علمت أن جوزيف كونراد، الذي وُلِدَ في بولندا وعَبَرَ البحار، كان على قيد الحياة وقتئذ! وفي مكان ما غير بعيد عنها، في إحدى طيّات إنجلترا! ويا لها من سعادةٍ لم تدُم طويلًا، فقد كانت على قيد الحياة لتُدرك ذلك، ففي إحدى صباحات أغسطس عام 1924 –مثل صدمةٍ نفسيّة مباغتة– قرأت في الصّحيفة، قبل أن تفردها مرّة أخرى وتضعها على طاولة الفطور للسيّد نايفن، أن جوزيف كونراد مات.

ولو كان للحقيقة أن تُعلَن (رغم أنها لن تقول هذا في أيّ مقابلة أو لأيّ أحد) فإن كل الصور التي رأتها لجوزيف كونراد –كونراد في سنّ متأخّرة– جعلتها تقع في حبّه. جاذبيّته، لحيته، تعبيرُ عينيه وكأنه يرى شيئًا بعيدًا هو في الوقت نفسه داخليٌّ وعميق. حتى أنّها تخيّلت، في بعض الأوقات، كيف سيكون عليه الأمر أن تستلقي في الفراش جوار

كونراد، أن تستلقي جواره وحسب، عارية، دون أن يتبادلا الحديث، وكلاهما يراقبان عمودين من الدخان يعلوان منفصلين ليمتزجا أخيرًا عند السقف، وكأنّ الدخان يحمل حقيقةً أكبر من أن يستطيع أيّ واحد منهما وضعها في كلمات.

أوّل تنهيدةٍ من هواء الشّرق على وجهي. ذاك ما لا يمكنني نسيانه.

سوف تغدو كاتبة. وستكتب كتبًا. ستؤلّف تسع عشرة رواية. وسوف تُمسي أيضًا 'كاتبةً حديثة'. لكن إلى متى تبقى كاتبًا 'حديثًا'؟ إنها كلمةٌ مثل كلمة 'شباب'. على أيّ حال، هل ذاك هو كلّ ما تنطوي عليه الكتابة: أن تكون حديثًا؟ سوف تعاصر أوقاتًا وتغيّرات، وسوف تكتب عنها. سوف تعيش حتى تتجاوز التسعين عامًا، قريبةً من المئة، وفي سنيّها الأخيرة عندما طوّرت أسلوبها العابث المتخابث في الكلام، بينما بات يُحتفى بسنّها –'جين فيرتشايلد تبلغ الثمانين'، و'جين فيرتشايلد تبلغ التسعين'– سوف تذكر أسماء الكُتّاب من مُجايليها وسابقيهم وكأنهم، كان يا ما كان، في يوم من الأيام، أصدقاءها.

المشاهد كلّها. الحقيقيّة منها والمُستقاة من الكتب. وتلك التي كانت بشكلٍ ما بينَ بين، لأنها كلّ ما كانت تستطيع من خلاله أن تتصوّر البشر الحقيقيّين وتتخيّلهم. كأنْ تحاول أن تتصوّر أمّها. أو ما كان يُمكن أن يحدث في الواقع لو أنّ الأمور جرَتْ مجْرًى آخر، مرّةً، في زمنٍ بعيد. ربما كانت لتذهب معه، ربما أمكَنَ تدبُّر الأمر بطريقةٍ ما عجيبة، فتقف جواره ملتصقةً به مندسّةً فيه، عند الحاجز، في هواء الفجر

البارد، بينما الشّمس تفرشُ سجاجيد ناريّة هائلة على المروج، بينما الحصان فاندانغو يقترب منهما، منخاراه في أشدّ اتّساعهما ويُطلقان بخارًا، وحوافره تقرع الأرض. لربما فهمت الأمر وعرفته إلى الأبد. السّاق الرّابعة؟ السّاق الرابعة كانت لها!

سوف تروي في كتبها قصصًا كثيرة. حتى أنّها سوف تروي، في سنواتها الأخيرة وقد باتت غير مبالية، قصصًا عن حياتها، بطريقة لن يمكنك معها البتّ في ما إذا كانت حقيقيّة أو من وحي الخيال. غير أن هناك قصّة واحدة لن ترويها أبدًا. هنالك أمورٌ تلزَمُ إزاءها الصّمت، صمتًا لا تشوبه شائبة مثل ذاك الذي فعلته إيثل (والتي باتت إيدث على أيّ حال). صامتةً صمتَ جوزيف كونراد، كما افترضت، فرغم عبقريّته في القَصّ، إلا أنّه كان سيستلقي جوارها، صامتًا عن بعض الأمور، كما لو كان قشرة جوفاء رائعة لرجل.

أن تحكي قصصًا، أن تحكي حكايات، دائمًا ما تبعث انطباعًا بأنّك تُتاجر باختلاق الأكاذيب. لكن، بالنسبة لها، كانت تلك دومًا مَهمّة الوصول إلى السّريع، القلبيّ، العُقدة، اللُّب: تجارة حكاية الحقيقة. ولقد كانت مهمّة دونالد أيضًا، بطريقته الخاصة. دونالد المسكين، أُخذ منها قبل أربعين عامًا، أو خمسين.

لنكتفِ بهذا القدر من هُراء هذه المقابلة ومُغالطاتها. ما الذي يعنيه حقًّا الأمر ذاك، أن تحكي الحقيقة؟ إنهم يريدون أن تفسّر لهم التفاسير نفسها! وأيّ كاتبٍ متمكنٍ ويحترم نفسه سوف يستغلّ ذلك

ويستدرجهم، سيقودهم إلى درب البستان. أليس ذلك واضحًا حدّ الفظاعة؟ إنّه يعني أن تكون صادقًا ومخلصًا لمعدن الحياة نفسها، إنّه عن محاولة القبض –رغم استحالة ذلك– على الشعور العميق لأن تكون حيًّا. إنّه عن محاولة العثور على لغة. وعن أن تكون صادقًا لحقيقة أنّ هناك –والشيء بالشيء يُذكر– أمورًا كثيرة في الحياة –أوه ما أكثرها، أكثر ممّا نظنّ– لا يمكن أبدًا تفسيرها.

دليل القارئ إلى تحليل الرواية

1. في رأيك، ما الذي يجذب جين لبول؟ وما الاحتياجات التي يوفرها كل منهما للآخر؟ وماذا نفهم من رؤيتهما معًا في حالة من العُري الكامل المتبادل في البداية، واستخدام الاستعارات الحيوانية في وصف ما يجري؟

2. إن الرواية تركز حصرًا على وجهة نظر جين، على الرغم من أن جين ليست هي الرّاوي المتكلّم أحيانًا، ما تأثير هذه المسافة القصصية الصغيرة المتروكة بين القارئ والرّاوي؟ وماذا يمكن أن تخبرنا هذه المسافة عن مهنة جين باعتبارها الروائية؟

3. ما أهمية يوم أحد الأمومة بالنسبة للشخصيّات؟ وما معنى اليوم بالنسبة لجين وقد أظهر لنا إحساسًا ما بداخلها؟ هل كانت جين تمتلك أفكارًا متحررة جعلتها لا تحزن عندما تتذكر أنها يتيمة ودون أم، أم كان ذلك يُحزنها بشكلٍ ما؟

4. ناقش التسلسل الهرمي داخل آل نايفن. كيف يرتبط توظيف شخصيات، مثل جين والطاهية ميلي في بيتشوود بالإحساس بأن بريطانيا تتغيّر وتتقدّم في شباب القرن العشرين؟ ما الفرق بين

الأجيال الأكبر والأصغر سنًا من الخدم حسب التسلسل الهرميّ؟ وما الفرق بين الخدم في بيتشوود والخدم في آبلي؟

5. ما المعلومات التي نخرج بها بعد قراءة هذه القصة من خلال وجهة نظر الخادمة، أي الأشخاص الذي تكون مهمتهم الاهتمام الكبير بالتفاصيل وتجاهلها في الوقت ذاته؟

6. لماذا تشعر جين بأنها قادرة على التغلب على الحدود التي تقيد حريتها باعتبارها خادمة، وكيف فعلت ذلك مع آل نايفن وبول؟ إلى أيّ مدى كانت تشعر بأنها ملزمة بالأدوار التي تقوم بها، وصولاً إلى التزامها بـ «ملابس الخدم الأشبه بالأشباح»؟ هل هذا سيتغير خلال حياتها؟

7. كيف تصف حس الفكاهة لدى جين؟

8. صف العلاقات المختلفة بين الآباء والأمهات والأطفال في الرواية. كيف يسهم التذكير المستمر بعطلة عيد الأم وعُرس بول وإيما في جميع فصول الكتاب في تعقيد تلك الروابط الأسرية التقليدية، بما في ذلك الزواج نفسه؟ وماذا يخبرنا ذلك عن شكل التقاليد في المستقبل؟

9. إن بنية الرواية منظمة في شكل قصص قصيرة دون زمن ثابت وعلى فترات كبيرة وصغيرة، ما آثار هذا النمط من كتابة القصص

على عنصر التشويق في الكتاب؟ وما الذي يُخبرنا هذا الأسلوب بشأن شخصية جين الرّاوية؟

10. لماذا ترى جين أنه من المهم للغاية ألا نفرق بين ما هو صحيح وغير صحيح في طريقة كتابتها، خاصة عندما ننظر إلى حبها الشديد للكتب، حيث إنها ادعت أنها الطريقة التي "يهرب بها الناس من مشكلات حياتهم"؟

11. ما أكثر مكان تشعر فيه جين بالانتماء؟ وهل هي متشوقة أكثر لإحساس الاندماج؟ أو الاستقلال؟ أو حب الامتلاك؟ أو أن يمتلكها أحد؟ ناقش العبارة التي قالت فيها "الحياة نفسها. . . هي مجموعُ الممتلكات المُهملة"، وماذا كانت تعني جين بذلك بالنسبة للخدم الذين ليس لديهم سوى عدد قليل جدًا من الممتلكات؟

12. هل تثق دائمًا بملاحظات وذكريات جين وطريقة تفسيرها للأحداث؟ إن لم تثق بذلك، ما الذي تسَبّب في أن تتشكّل لديك أسئلة التشكيك تلك في مدى موثوقية الذاكرة بشكل عام في جميع فصول الرواية؟

13. هل شعرت أن جين أحسّت بالذنب تجاه حادثة بول؟ هل توضح الرواية أن الشخصيات تقع بشكل أكبر تحت رحمة المصير، أم الإرادة الحرّة؟

غراهام سويفت

وُلد عام 1949، وألّف عشرة روايات؛ ومجموعتين قصصيّتين؛ وكتابًا آخر جمع فيه مقالاته وشعره وتأمّلاته في الحياة والكتابة. روايته «أرض المياه» فازت بجائزة الغارديان للرواية، وفاز بالبوكر عن رواية «الطّلب الأخير.» حوّلت الروايتان إلى أفلام. وتُرجمت كتبه إلى أكثر من ثلاثين لغة.

أحمد العلي

كاتب من السعودية، يعمل في الترجمة وتحرير الكتب. وُلد في مدينة الظهران عام 1986. تخرّج مهندسًا من جامعة البترول في السعودية، ثم أنهى دراساته العليا في علوم نشر الكتب والمجلات وتحريرها في مدينة نيويورك، وأخذ تدريبه عام 2014-2015 في دار نشر «كنابف» التابعة لدار «بينغوين راندوم هاوس» أكبر دور النشر في العالم. يعمل محرّرًا في «مجموعة كلمات» في الشارقة.

صدرَ له في الشّعر: «لافندر، أوتيل كاليفورنيا» / «كما يُغنّي بوب مارلي: دليلُ التائهين إلى نيويورك» / «يجلسُ عاريًا أمام سكايب» / «نهّام الخليج الأخضر.»

صدرَ له في الترجمة: «دكتور كلاس، رواية يلمار سودربيري» / «حليب أسود: مذكرات الروائية التركية أليف شافاق» / «اختراع العزلة: مذكرات الروائي الأمريكي بول أوستر» / «صندوق الموسيقى: مختارات شاملة من أعمال نعومي شهاب ناي الشعريّة» / «أصوات الطبول البعيدة: مختارات من الأدب الصوفي العالمي.»

جمعَ وحرّر أعمال الأستاذ محمد العلي الأدبيّة: «لا أحد في البيت:

مختارات من شعر محمد العلي» / «نمو المفاهيم: تساؤلات وآراء في الوجود والقيم» / «البئر المستحيلة: محاولات لتجاوز السائد في الثقافة والمجتمع» / «حلقات أولمبيّة» / «هموم الضوء» / «درس البحر»

مُدوّنة نهر الإسبرسّو

https://alaliahmed.wordpress.com

إنستقرام

@al_ali_ahmed

يسير السّرد في الزّمن ماضيًا وحاضرًا، منذ عام 1924 وحتى نهاية القرن. تكبُر جين فيرتشايلد، الخادمة التي تتحوّل إلى أشهر روائيّة في الوسط الأدبي. تكون قد أصدرت عدّة روايات اشتُهرت بها، غير أن هناك رواية واحدة لا تستطيع كتابتها، لا تستطيع الإفصاح عمّا جرى، في ذلك اليوم العجيب السحريّ، يوم أحد الأمومة قبل عشرات السّنين.

يخلق غراهام سويفت شخصيّة جين فيرتشايلد على غرار شخصيّة سندريلا الكلاسيكيّة، ويُجدّد بذلك طريقة الحكواتي التقليدية، فيأخذها لا ليوجّهها إلى الأطفال، بل الناضجين، ويُعيد كتابة سندريلا فيحوّلها إلى جين، التي تؤمن بقدراتها وذكائها، وتقرأ الكتب، ولا رجُل في حياتها تنتظره كي يرفع من قَدْرها ومقامها، وتنزع عنها ثياب الخادمات لترتدي ما تريده هي. قصّة رومانسيّة ينقبض لها القلب، كُتبَت بأسلوب سرديّ خلّاب وتجريبيّ، ما جعل منها حكاية نادرة ومُثيرة.

وُلد عام 1949، وألّف عشرة روايات؛ ومجموعتين قصصيّتين؛ وكتابًا آخر جمع فيه مقالاته وشعره وتأمّلاته في الحياة والكتابة. روايته «أرض المياه» فازت بجائزة الغارديان للرواية، وفاز بالبوكر عن رواية «الطّلب الأخير.» حوّلت الروايتان إلى أفلام. وتُرجمت كتبه إلى أكثر من ثلاثين لغة.

جين فيرتشايلد، شابّة تعمل خادمة في أحد منازل الرّيف الإنجليزي، تلتقي عشيقها السرّي، بول شيرينغهام، الشّاب النبيل الذي ينتمي إلى العائلة السّاكنة في الجوار. يتمّ اللقاء بينهما في يوم أحَد الأمومة (عيد الأم) حيث تُصرَف الخادمات نهارًا للسّفر كي يزُرنَ أمّهاتهن. تغدو البيوت فارغة من سكّانها حينها، فالنُّبلاء يخرجون إلى حيث يُخدَمون حتى عودة الخدَم ليلًا. لكن جين تقضيه مع بول، رغم أنّه على وشك الزواج من امرأة توافق متطلّبات طبقته العائليّة ومستواها، وقد اقترب موعد حفلة زواجه، وبدا لها أن هذا اليوم هو يومهما الأخير معًا.

«تراجيديا قصيرة ومؤلمة... رواية سويفت هذه، ولا شك، تُحفة أدبيّة»

Guardian

«إنّه سيّد التفاصيل وتأجيل اللحظة، يكتب سويفت بأناةٍ وتراكُم خالقًا سردًا يحمل أكثر ممّا يجده المرء في القراءة الأولى»

Independent

««أحد الأمومة» رواية قويّة، فلسفيّة، وشديدة الخصوصيّة، عن حيواتنا التي ندفعها إلى الأمام، وتلك الحيوات الموازية لنا، تلك القصص المستغلقة التي لا يمكن لنا أبدًا معرفتها...»

Observer

ISBN 9789948101017

Cover by: Megan Wilson / Image: Bridgeman

روايات
REWAYAT